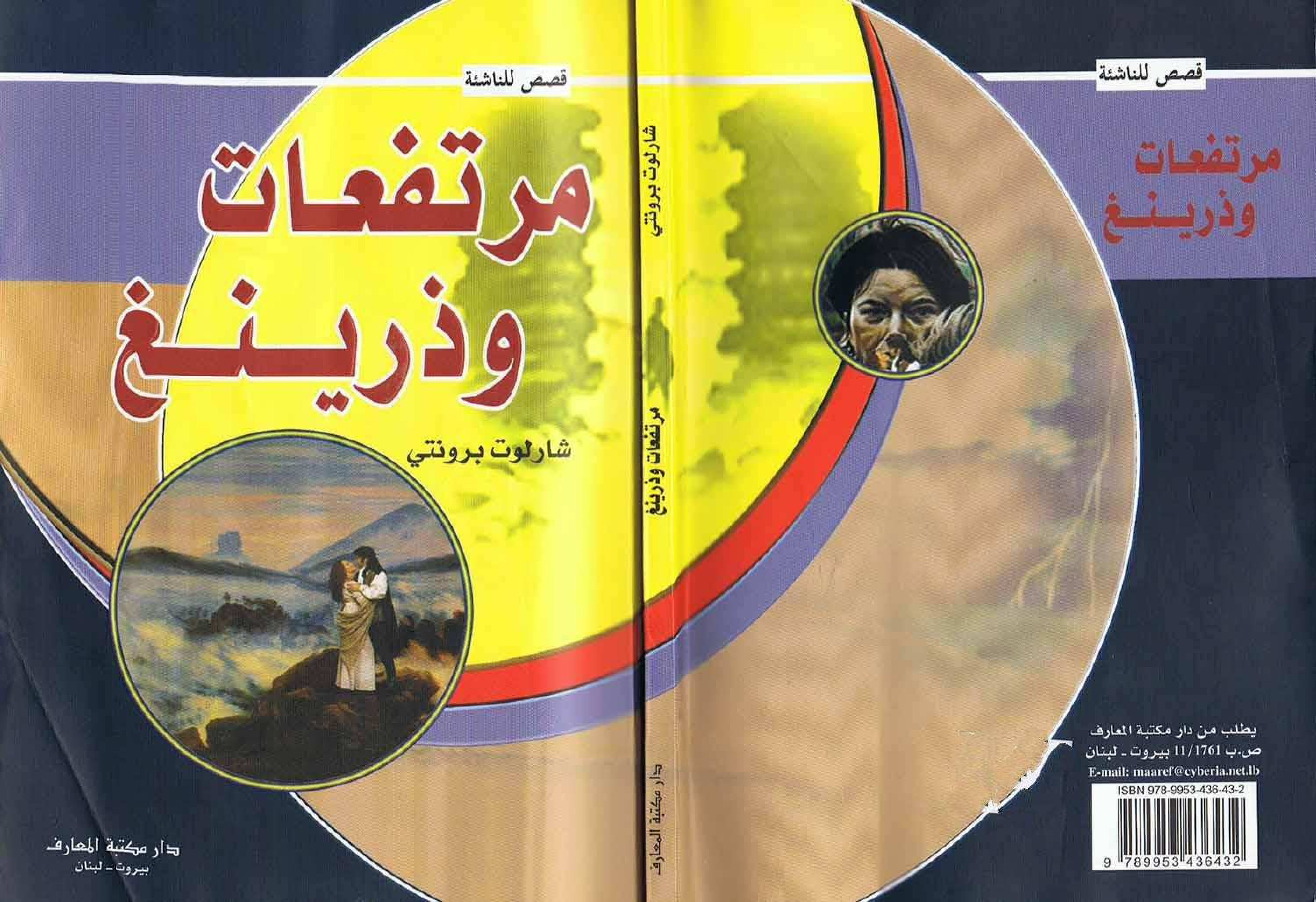

قصص للناشئة
مرتفعات
وذرينغ
شارلوت برونتي
دار مكتبة المعارف
بيروت ـ لبنان
شارلوت برونتي
مرتفعات وذرينغ
دار مكتبة المعارف
قصص للناشئة
مرتفعات
وذرينغ
يطلب من دار مكتبة المعارف
ص.ب 11/1761 بيروت ـ لبنان
E-mail: maaref@cyberia.net.lb
ISBN 978-9953-436-43-2
9 789953 436432

مكتبة المعارف
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
1428 هـ - 2008 م

ISBN 978 - 9953 - 436 - 43 - 2

الإدارة العامة : كورنيش المزرعة - بناية إسكندراني - ط2
هاتف وفاكس: 653857-1- 00961 / 653852 - 1 - 00961
المكتبات والمستودعات : شارع حمد بناية رحمة
هاتف وفاكس : 640878 -1- 00961
هاتف جوال : 205669 - 892210 - 227724 (-3- 00961)
ص.ب 11/1761 بيروت - لبنان
E-mail: maaref@cyberia.net.lb
WWW.al-maaref.com

قصص للناشئة

مرتفعات وذرينغ

*

الحزن العميق

شارلوت برونتي

ترجمة وإعداد لجنة من المتخصصين
بإشراف الناشر

مكتبة المعارف
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

قصص للناشئة

هذه المجموعة هي من القصص العالميَّة المختارة تقوم بإعدادها وترجمتها واقتباسها لجنة من الجامعيين المتخصّصين في هذا المجال بإشراف الناشر

ـ أليس في بلاد العجائب	لويس كارول
ـ جزيرة الكنز	ر.ل. ستيفنسون
ـ تاجر البندقية	شارل شكسبير
ـ جلفر	جوناثان سويفت
ـ روبنسون كروزو	ر.ل. ستيفنسون
ـ قصة مدينتين	تشارلز ديكنز
ـ تراس بولبا بطل القوزاق	نيقولا غوغول
ـ مرتفعات وذرينغ ـ الحزن العميق	شارلوت برونتي
ـ ذهب مع الريح	مرغريت ميتشل
ـ الأرض الطيبة	بيرل باك
ـ جاين إير	شارلوت برونتي
ـ دايفيد كوبرفيليد	شارلز ديكنز
ـ روبن هود	عن ولت ديزني ـ ميشال وست
ـ الأم	مكسيم غوركي
ـ الزنبقة السوداء	إسكندر دوماس

تطلب من مكتبة المعارف ص.ب. 11/1761 - بيروت

لَمْ أُفَكِّرْ أَنَّني فَرَضْتُ على نَفسي النَّفْيَ عَنِ المُجْتَمَعِ عِنْدَما اسْتَأْجَرْتُ هَذا البَيْتَ الرِّيفيَّ في مَزْرَعَةِ «تْراش كْروس».

امْتَطَيْتُ حِصاني لِأَوَّلِ مَرَّةٍ لِأَزورَ السَّيِّدَ هِيثْكْليف صاحِبَ المَزْرَعَةِ. وَلَمّا أَصْبَحْتُ على مَقْرُبَةٍ مِنْ بَيْتِهِ رَأَيْتُهُ واقِفاً خَلْفَ البَوّابَةِ الخارِجيَّةِ فَقُلْتُ لَهُ:

ـ مَرْحَباً بِكَ يا سَيِّدَ هيثْكْليف. أَنا لوكوودُ المُسْتَأْجِرُ الجَديدُ لِمَزْرَعَةِ «تراشْ كروسْ»، جِئْتُ لِأُقَدِّمَ تَحيَّتي واحْتِرامي يا سَيِّدي.

ردَّ السَّيِّدُ هيثْكْليف التَّحيَّةَ بِبُرودَةٍ وَصُعوبَةٍ مِنْ دونِ أَنْ تَبْدوَ عَلَيْهِ عَلاماتُ الرَّغْبَةِ في اسْتِقْبالي، مِنْ دونِ أَنْ يوجِّهَ إِلَيَّ الدَّعْوَةَ لِلدُّخولِ. غَيْرَ أَنَّ حِصاني راحَ يَدْفَعُ البابَ بِصَدْرِهِ، فاضْطُرَّ السَّيِّدُ هيثْكْليف إلى رَفْعِ إِحْدى يَدَيْهِ، فَأَزاحَ المِزْلاجَ، واسْتَدارَ، ثُمَّ سارَ بِاتِّجاهِ السّاحَةِ الخارِجيَّةِ لِلْبَيْتِ مِن دونِ أَنْ يُحَدِّثَني بِكَلِمَةٍ. كانَ يَسيرُ في مَمَرٍّ مَرْصوفٍ بِالأَحْجارِ، وَنادى الخادِمَ «يوسُفَ» لِيَأْخُذَ الحِصانَ وَلِيُحْضِرَ بَعْضَ الشَّرابِ.

تَقَدَّمَ الخادِمُ وَبَدا لي أَنَّهُ رَجُلٌ عَجوزٌ، سَيِّئُ الطِّباعِ. وَراحَ يُتَمْتِمُ، وَهوَ يَقودُ الحِصانَ، بِعِباراتٍ لَمْ أَفْهَمْ مِنْها سِوى كَلِماتٍ: لِيُساعِدْنا اللهُ.

لَقَدْ أُطْلِقَ عَلى بَيْتِ السَّيِّدِ هيثْكْليف اسْمَ: «مُرْتَفِعاتِ وذِرينْغ»، وَهوَ أَفْضَلُ تَعْبيرٍ عَنْ قَساوَةِ مُناخِ هَذا الْجزْءِ مِنْ «يوركْشاير». هُنا يَشْعُرُ المَرْءُ بِعُنْفِ الرِّياحِ وَقوَّتِها عِنْدَما تَعْصِفُ فَوْقَ المُرْتَفَعاتِ.

دَخَلْنا البَيْتَ وَتَوجَّهْنا إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ، فَجَلَسْتُ قُرْبَ مِدْفَأَةٍ ضَخْمَةٍ وَرُحْتُ أُداعِبُ كَلْبَةً مَعَ صِغارِها كانَتْ تَحْتَلُّ زَوايا الغُرْفَةِ. وَلَقَدْ بَقيتُ صامِتاً والحَيْرَةُ تَكْتَنِفُني نَظَراً لِلأَثاثِ «المَدْفونِ» في هَذِهِ الغُرْفَةِ.

كانَ شَكْلُ «السَّيِّدِ» وَبَشَرَتُهُ الدّاكِنَةُ أَشْبَهَ بالغَجَرِ. فَهو وَسيمُ الطَّلْعَةِ، رَبعُ القامَةِ، يَبْدو سوءُ طِباعِهِ عَلى مُحَيّاهُ.

أَفَقْتُ مِنْ تَفْكيري عَلى صَوْتِهِ يَدْعوني بِجَفاءٍ أَنْ أَكُفَّ عَنْ مُداعَبَةِ الكَلْبَةِ ثُمَّ رَفَسها بِإِحْدى قَدَمَيْهِ وَهوَ ذاهِبٌ لِيُناديَ خادِمَهُ مَرَّةً أُخْرى. ونَفَدَ صَبْرُ السَّيِّدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَتَرَكَني مَعَ الكِلابِ. ثُمَّ إِنَّ أَكْبَرَها قَفَزَ عَلَيَّ وَجَلَسَ عَلى رُكْبَتي، فَرَمَيْتُهُ أَرْضاً. وَهَذا ما أَزْعَجَ بَقيَّةَ الكِلابِ فَأَخَذَتْ تَتَجَمَّعُ حَوْلي وأَحاطَتْني لِتَمْنَعَني مِنَ الحَرَكَةِ، حتى اضْطُرِرْتُ إِلى طَلَبِ النَّجْدَةِ.

تَقَدَّمَتْ مِنّي امْرَأَةٌ بَدينَةٌ، مُحْمَرَّةُ الوَجْهِ لِشِدَّةِ الحَرارَةِ في المَطْبَخِ، وَأَخَذَتْ تَضْرِبُ الكِلابَ بِإِحْدى المَقالي، تُبْعِدُها عَنّي. وَفي هَذا الوَقْتِ حَضَرَ هيثْكْليف وَهو يَصْرُخُ قائِلاً: بِحَقِّ الشَّيْطانِ ماذا يَحْدُثُ هُنا؟

وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ مُبْدِياً رَأْيي في كِلابِهِ. فَأَجابَني بِحِدَّةٍ: إِنَّ كِلابي

لا تَتَدَخَّلُ مَعَ الأَشْخاصِ الَّذينَ لا يَلْمَسون شَيْئاً. ثُمَّ ابْتَسَمَ وَكَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنَ انْزِعاجي وَهو يَقولُ:

ـ اشْرَبْ قَليلاً، فَتَرْتاحُ وَيَعودُ لَكَ هُدوؤكَ.

رَفَضْتُ طَلَبَهُ شاكِراً. وَعِنْدَما أَلَحَّ عَلَيَّ تَناوَلْتُ قَليلاً مِنَ الشَّرابِ وَأَنا أَسْتَمِعُ لِحَديثِهِ الَّذي عَبَّرَ لي فيهِ عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ اسْتِقْبالَ ضَيْفٍ؛ لِأَنَّهُ نادِراً ما يَفْعَلُ ذَلِكَ.

شَعَرْتُ بِارْتِياحٍ عِنْدَما سَمِعْتُ مِنْهُ هَذِهِ الكَلِماتِ وَوَجَدْتُ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ أَتَناسى ما حَدَثَ. وَبِخاصَّةٍ أَنَّهُ أَخَذَ يُحَدِّثُني بِأَدَبٍ عَظيمٍ، جَعَلَني أُقَرِّرُ العَوْدَةَ لِزِيارَتِهِ في اليَوْمِ التّالي.

وَدَّعْتُهُ وَرَجَعْتُ إِلى مَنْزِلي. وَفي الطَّريقِ رُحْتُ أُفَكِّرُ في الأَحْداثِ الَّتي مَرَرْتُ بِها، فَشَعَرْتُ أَنَّني والسَّيِّدُ الَّذي عَلى مَسافَةِ أَمْيالٍ، نَكادُ نَتَماثَلُ في أَنَّ كُلّاً مِنّا يَشْعُرُ بِالفَراغِ والمَلَلِ.

قَطَعْتُ مَسافَةَ الأَرْبَعَةِ أَمْيالٍ وَكَأَنَّ الثَّلْجَ قَدْ بَدَأَ يَتَساقَطُ وَأَخَذَ البَرْدُ القارِسُ يَلْسَعُني وَيَنْخُرُ عِظامي. وَأَخيراً وَصَلْتُ، فَطَرَقْتُ البابَ وانْتَظَرْتُ. إِلّا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِطَرَقاتي سِوى نُباحِ الكِلابِ. فَعُدْتُ أَطْرُقُ مِنْ جَديدٍ وَبِقوَّةٍ أَشَدَّ، وَإِذا بيوسُفَ يُطِلُّ مِنَ النّافِذَةِ قائِلاً:

ـ مَنِ الطّارِقُ؟ وَماذا تُريدُ؟

ـ أَنا لوكوودْ. أَما مِنْ أَحَدٍ يَفْتَحُ لِيَ البابَ؟

- كَلا . . . إنَّ سَيِّدَتي لَنْ تَفْتَح لَكَ وَلَوْ بَقيتَ مَكانَكَ طَوالَ اللَّيلِ. وَأمّا سَيِّدي فَهوَ في الحَقْلِ.

- لِماذا تَرْفُضُ سَيِّدَتُكَ اسْتِقْبالي؟ أنا لوكوود.

- هَذا لَيسَ مِنْ شَأْني . . .

وَأَغْلَقَ النّافِذَةَ وانْصَرَفَ. وازْدادَ تَساقُطُ الثُّلوجِ واحْتَرْتُ في أَمْري، فَلَيسَ يُمْكِنُني أَنْ أَبْقى في ذَلِكَ الوَضْعِ أَبَداً! لِذا عُدْتُ أَطْرُقُ البابَ مِنْ جَديدٍ. وَمِنْ خَلْفِ البابِ، ظَهَرَ شابٌّ عاري الصَّدْرِ، يَحْمِلُ فَأساً في يَدِهِ وَكَأَنَّهُ عائِدٌ مِنَ الحَقْلِ تِلْكَ اللَّحْظَةَ. وَلَمّا رَآني طَلَبَ مِنّي أَنْ أَتْبَعَهُ مِن دونِ أَنْ يُعَرِّفَني عَنْ نَفْسِهِ.

سِرْتُ إلى جانِبِهِ حَتّى وَصَلْنا إلى الغُرْفَةِ الَّتي كُنْتُ فيها بِالأَمْسِ، حَيْثُ كانَتِ النّارُ تَتَوَهَّجُ في مِدْفَأَتِها الضَّخْمَةِ. وَفوجِئْتُ بِوُجودِ سَيِّدَةٍ تَجْلِسُ إلى المائِدَةِ، وَكُنْتُ عَلِمْتُ في زِيارَتي الأولى بِأَنَّهُ لا يَسْكُنُ البَيْتَ غَيْرُ السَّيِّدِ، وَيوسُفَ، والمُدَبِّرَةُ البَدينَةُ الَّتي أَبْعَدَت الكِلابَ عَنّي.

وَقَفْتُ حائِراً لِلَحَظاتٍ ثُمَّ انْحَنَيْتُ أَمامَها مُحَيِّياً، لَكِنَّها لَمْ تَرُدَّ التَّحِيَّةَ، بَلْ بَقِيَتْ صامِتَةً تَنْظُرُ إلَيَّ دونَ أَنْ تَدْعوَني إلى الجُلوسِ. وَأَرَدْتُ التَّخَلُّصَ مِنْ هَذا المَوْقِفِ الحَرِجِ وَقَطَعَ ذَلِكَ الصَّمْتِ المُزْعِجِ فَقُلْتُ:

- ما أَفْظَعَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ!

لَكِنَّ السَّيِّدَةَ ظَلَّتْ تَنْظُرُ إلَيَّ نَظَراتٍ خالِيَةٍ مِنَ الاهْتِمامِ. وَهُنا تَدَخَّلَ الشّابُّ وَقالَ بِصَوْتٍ جافٍ:

- خُذْ كُرْسِيًّا واجْلِسْ، سَيَحْضُرُ السَّيِّدُ بَعْدَ قَليلٍ.

جَلَسْتُ أَنْتَظِرُ، فاقْتَرَبَ مِنّي أَحَدُ الكِلابِ وَراحَ يُحَرِّكُ ذَنَبَهُ وَهوَ يَنْظُرُ إلَيَّ وَكَأَنَّ عَداوَةَ الأَمْسِ تَحَوَّلَتِ اليَوْمَ إلى صَداقَةٍ. وَأَخَذْتُ أُداعِبُهُ، ثُمَّ عُدْتُ أَتَحَدَّثُ عَنْ سوءِ الأَحْوالِ الجَوِّيَّةِ. وَهُنا، أَجابَتْني السَّيِّدَةُ:

- ما كانَ لَكَ أَنْ تَتْرُكَ بَيْتَكَ في مِثْلِ هَذا الجَوّ. ثُمَّ نَهَضَتْ وَسارَتْ نَحْوَ رَفٍّ وَحاوَلَتْ أَنْ تَتناوَلَ عَنْهُ عُلْبَتَيْنِ مِنَ المَعْدِنِ.

كانَتْ هَذِهِ اللَّحْظَةُ فُرْصَةً لِأَتَبَيَّنَ شَكْلَها؛ إنَّها صَبِيَّةٌ، قَوامُها جَميلٌ مَمْشوقٌ، وَوَجْهُها ساحِرٌ فَتّانٌ. لَقَدْ كانَ أَجْمَلَ وَجْهٍ رَأَيْتُه في حَياتي.

كانَتْ العُلْبَتانِ بَعيدَتَيْنِ عَنْ يَدِها. نَهَضْتُ لِأُساعِدَها، لَكِنَّها شَعَرَتْ بِذَلِكَ، فاسْتَدارَتْ وَقالَتْ بِحِدَّةٍ:

- عُدْ إلى مَكانِكَ، فَأَنا لَسْتُ بِحاجَةٍ لِمُساعَدَتِكَ.

عُدْتُ إلى مَكاني، أَمّا هي فَقَدِ اسْتَطاعَتْ أَنْ تَصِلَ إلى العُلْبَتَيْنِ. وَأَمْسَكَتْ مِلْعَقَةً وَمَلأَتْها بِالشّايِ النّاعِمِ. وَفَجْأَةً، تَوَقَّفَتْ واسْتَدارَتْ نَحْوي قائِلَةً:

- هَلْ أَنْتَ مَدْعوٌّ لِتَناوُلِ الشّايِ هُنا؟

فَأَجَبْتُها مُبْتَسِماً:

- أَنا أَنْتَظِرُ دَعْوَتَكِ يا سَيِّدَتي . . .

وعِنْدَها أَلْقَتْ المِلْعَقَةَ مِنْ يَدِها وَعادَتْ إلى كُرْسِيِّها وَكَأَنَّها طِفْلٌ أَضاعَ دُمْيَتَهُ فَلَجَأَ إلى البُكاءِ.

وَأَنْقَذَتْني مِنْ هَذا المَوْقِفِ عَوْدَةُ الشّابِّ الَّذي فَهِمْتُ مِنْ نَظَراتِهِ أَنَّهُ شَعَرَ بِما حَدَثَ فَراحَ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظَراتٍ مِلْؤُها الغَضَبُ والكَراهِيَةُ، وَكَأَنَّ عَداوَةً قَديمَةً بَيْنَنا. لِمَ هَذِهِ الكَراهِيَةُ وَكَيْفَ تَوَلَّدَتْ؟ تُرى مَنْ يَكونُ الشّابُّ بِالنِّسْبَةِ إِلى هٰذِهِ العائِلَةِ؟

وَهُنا دَخَلَ السَّيِّدُ هيثكليف الغُرْفَةَ وَقالَ:

ـ أنا أَعْجَبُ مِنْ تَصَرُّفِكَ يا سَيِّد لوكوود، فَأَنْتَ حَديثُ عَهْدٍ في هَذِهِ النّاحِيَةِ وَما زِلْتَ تَجْهَلُ مَسالِكَها الوَعِرَةَ، وَخاصَّةً في هَذا الطَّقْسِ العاصِفِ. إِنَّكَ بِعَمَلِكَ هَذا تُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِلْخَطَرِ!

اتَّخَذْتُ مِنْ مُحافَظَتي على وَعْدي الَّذي قَطَعْتُهُ لِزِيارَتِهِ، حُجَّةً لِأُسَوِّغَ مَوْقِفي، وَأَكَّدْتُ لَهُ أَنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ الطَّقْسَ سَيَكونُ عَلى هَذِهِ الصّورَةِ. فَالْتَفَتَ إِلَيَّ قائِلاً:

ـ سَأُحاوِلُ أَنْ أَجِدَ شَخْصاً يُرافِقُكَ لِتَعودَ إِلى بَيْتِكَ.

وَنَظَرَ إِلى الشّابِّ وَسَأَلَهُ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ رَفَضَ طَلَبَهُ بِجَفاءٍ وَالْتَفَتَ لِيَسْأَلَ السَّيِّدَةَ ما إِذا كانَتْ قَدْ جَهَّزَتِ الشّايَ فَلَمْ تَرُدَّ عَلَيْهِ.

وَجَلَسْنا إِلى المائِدَةِ وَقَدْ لَفَّنا صَمْتٌ مُخيفٌ دامَ طوالَ فَتْرَةِ جُلوسِنا. وَلَمْ يَكُنْ يُسْمَعُ غَيْرُ صَوْتِ المَلاعِقِ والأَطْباقِ.

عَجيبٌ أَنْ تَقومَ بَيْنَ هَؤُلاءِ الأَشْخاصِ عَلاقَةٌ غَريبَةٌ سَيِّئَةٌ وَهُمْ يَعيشونَ جَميعاً تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ. وَلَقَدْ تَساءَلْتُ حَوْلَ ما إِذا كانَ وُجودي هوَ السَّبَبَ؟ وَإِنْ كانَ ذَلِكَ، فَعَلَيَّ أَنْ أَجِدَ طَريقَةً لِأُعيدَ الأَوْضاعَ إِلى مَجْراها الطَّبيعِيِّ. ثُمَّ الْتَفَتُّ مُحاوِلاً الكَشْفَ عَنِ اللُّغْزِ المُبْهَمِ في حَياةِ هَذِهِ العائِلَةِ، فَقُلْتُ:

ـ إِنَّ كَثيراً مِنَ النّاسِ تَمْلَأُ حَياتَهُمُ التَّعاسَةُ وَهُمْ بَعيدونَ عَنِ المُجْتَمَعِ، أَمّا أَنْتَ أَيُّها السَّيِّدُ هيثكليف، فَأَنْتَ وَزَوْجَتُكَ وَعائِلَتُكَ. . .

وَهُنا قاطَعَني السَّيِّدُ بِصَوْتٍ خَشِنٍ:

ـ لا زَوْجَةَ لي، فَقَدْ ماتَتْ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ.

وَتابَعَ السَّيِّدُ حَديثَهُ، وَكَأَنَّهُ قَرَأَ ما يَدورُ في رَأْسي مِنْ أَفْكارٍ. فَقالَ وَهوَ يَرْمُقُ الفَتاةَ بِنَظَراتٍ تَنْضَحُ بِالحِقْدِ والكَراهِيَةِ:

ـ إِنَّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ زَوْجَةُ ابْني. وَهَذا الشّابُّ لَيْسَ ابْني. لَقَدْ تُوُفِّيَ وَلَدي مُنْذُ زَمَنٍ.

ثُمَّ صَمَتَ.

كانَ الشّابُّ لا يَزالُ يَتَناوَلُ طَعامَهُ، غَيْرَ مُبالٍ بِما يَدورُ حَوْلَهُ مِنْ حَديثٍ. وَلَدى سَماعِهِ السَّيِّدَ يَتَكَلَّمُ عَنِ ابْنِهِ، احْمَرَّ وَجْهُهُ، وَنَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً يَكْمُنُ فيها التَّهْديدُ. وَقالَ:

ـ اسْمي هاريتون إيرنشو، وَأَنا أَنْصَحُكَ بِاحْتِرامي.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَحْسَسْتُ أَنَّ وُجودي مَعَهُمْ شَيْءٌ غَيْرُ مَرْغوبٍ فيهِ. وَأَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُغادِرَ هَذا البَيْتَ مِنْ دونِ عَوْدَةٍ.

انْتَهَيْنا مِنَ الطَّعامِ، فَنَهَضْتُ مِنْ مَقْعَدي لِأُطِلَّ مِنَ النّافِذَةِ بِحُجَّةِ اسْتِطْلاعِ حالَةِ الطَّقْسِ.

كانَتِ اللَّيْلَةُ مُظْلِمَةً، والغُيومُ السَّوْداءُ تُغَطّي صَفْحَةَ السَّماءِ. وَكُنْتُ لا أَسْمَعُ سِوى تَساقُطِ الثَّلْجِ في الخارِجِ. وَمِنْ ثَمَّ أَدْرَكْتُ صُعوبَةَ مُغادَرَةِ هَذا البَيْتِ في مِثْلِ هَذا الطَّقْسِ من دونِ أَنْ

يُرافِقَني أَحَدٌ. فَصَرَخْتُ قائِلاً: ـ مِنَ المُسْتَحيلِ أَنْ أَصِلَ إِلى بَيْتي. سَأُمْضي اللَّيْلَةَ هُنا. . .

نَظَرْتُ حَوْلي فَلَمْ أَجِدْ سِوى الخادِمِ يوسُفَ الَّذي كانَ يَرفَعُ بَقايا الطَّعامِ عَنِ المائِدَةِ، أَمّا السَّيِّدَةُ فَكانَتْ مُنْحَنِيَةً فَوْقَ المِدْفَأَةِ وَكَأَنَّها تَعيشُ في عالَمٍ آخَرَ، مُتَجاهِلَةً كُلَّ شَيْءٍ. وَأَمّا السَّيِّدُ فَقَدْ خَرَجَ مَعَ الشّابِّ من دونِ أَنْ يُلْقِيا عَلَيَّ أَيَّةَ تَحِيَّةٍ.

لَقَدْ أَصْبَحَ مَوْقِفي حَرِجاً، وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ ما يَجِبُ عَلَيَّ عَمَلُه. وَقَدْ زادَ اضْطِرابي حينَ لَمْ أَجِدْ مَنْ يَهْتَمُّ بِالرَّدِّ عَلى سُؤالي هَذا. فَوَجَّهْتُ حَديثي بِلَهْفَةٍ إِلى السَّيِّدَةِ، قائِلاً:

ـ يا سَيِّدَتي. . اعْذُريني. . إِنَّني أَرْجو مِنْكِ أَنْ تُحَدِّدي لي بَعْضَ عَلاماتِ الطَّريقِ الَّتي توصِلُني إِلى بَيْتي. .

فَأَجابَتْني والكِتابُ بِيَدِها:

ـ عُدْ مِنَ الطَّريقِ الَّتي أَتَيْتَ مِنْها، فَلَيْسَ بِإِمْكاني أَنْ أُرافِقَكَ. إِنَّهُ لا يُسْمَحُ لي بِتَجاوُزِ جِدارِ الحَديقَةِ. فَشَكَرْتُها عَلى الرَّدِّ واسْتَطْرَدْتُ قائِلاً:

ـ وَإِذا جاءَكِ أَحَدٌ نَهارَ غَدٍ بِخَبَرِ مَوْتي، أَلَنْ تَشْعُري بِتَأْنيبِ الضَّميرِ في تِلْكَ الحالِ؟

وَصَرَخَتْ قائِلَةً:

ـ أَلا يَكْفي ما أُلاقيهِ مِنَ الحُزْنِ والعَذابِ في وَحْدَتي؟ فَلِماذا تَزيدُ حالي سوءاً يا هَذا؟

والحَقُّ أَنَّني تَأَثَّرْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ كَلِماتِها، وَشَعَرْتُ بِالشَّفَقَةِ

عَلَيْها رَغْمَ ما أُعانيهِ. لِذا حاوَلْتُ أَنْ أُخَفِّفَ مِنْ شَقائِها فَقُلْتُ:

ـ أَلَيْسَ هُنالِكَ في المَزْرَعَةِ عامِلٌ يُرافِقُني في طَريقِ العَوْدَةِ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ، فَلا خيارَ لي في قَضاءِ اللَّيْلَةِ هُنا. أَلَيْسَ كَذلِكَ؟

ـ هَذا لَيْسَ مِنْ شَأْني، عَلَيْكَ أَنْ تَتَّفِقَ مَعَ مُضيفِكَ.

وَفَجْأَةً، دَوى صَوْتُ هيثكْليف دونَ أَنْ أَدْرِيَ كَيْفَ دَخَلَ الغُرْفَةَ:

ـ أَرْجو أَنْ يَكونَ هَذا دَرْساً لَكَ، فَلا تُعاوِدَ الخُروجَ مِنْ بَيْتِكَ في مِثْلِ هَذا الجَوِّ.

ـ لَقَدْ حَدَثَ ما حَدَثَ يا سَيِّدي، فاسْمَحْ لي أَنْ أَبيتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ هُنا، وَلَوْ عَلى إِحْدى الكَراسِيِّ المَوْجودَةِ.

ـ كَلّا. الغَريبُ يَظَلُّ غَريباً. أَنا لا أَسْتَضيفُ أَحَداً ما لَمْ يَكُنْ تَحْتَ مُراقَبَتي، فَإِنْ أَرَدْتَ البَقاءَ هُنا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُشارِكَ هاريتون أَوْ الخادِمَ يوسُفَ فِراشَهُما.

وَلَقَدْ ذُهِلْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ جَوابَهُ المُثيرَ حَتّى أَعْماني الغَضَبُ، وانْدَفَعْتُ إِلى الخارِجِ، فاصْطَدَمْتُ بِالخادِمِ الَّذي كانَ يَحْلِبُ البَقَراتِ عَلى نورِ المِصْباحِ. وَأَخَذْتُ المِصْباحَ مِنْ يَدِهِ وَصِحْتُ: «سَأُعيدُهُ لَكَ في الصَّباحِ».

فَصَرَخَ الرَّجُلُ وَهوَ يَسْتَنْجِدُ قائِلاً: «لَقَدْ سَرَقَ المِصْباحَ. . أَمْسِكوهُ. . أَمْسِكوهُ».

هَجَمَتِ الكِلابُ عَلَيَّ وَغَرَزَتْ مَخالِبَها في عُنُقي حَتّى

طَرَحَتْني أَرضاً. وَجُنَّ جُنوني حِينَها، وَرُحتُ أُجاهِدُ لِكَي أَتخلَّصَ مِنها. هَذا بَيْنَما كانَتْ ضَحكاتُ هيثْكليف وَهاريتونْ تُمزِّقُ سُكونَ اللَّيْلِ.

شَعرْتُ بِالذُّلِّ والهَوانِ لِلحالَةِ الَّتي وَصلْتُ إليْها، واسْتَسْلَمْتُ لِلأَقْدارِ، وَبَقيتُ مُسْتَلْقياً عَلى الأَرْضِ حَتّى أَبْعَدوا عَنّي الكِلابَ.

غَضِبَتْ مُدبِّرَةُ المَنْزِلِ عِنْدَما رَأَتْني، وَبَدأَتْ تُحدِّثُ هيثْكليف بِفَظاظَةٍ وَهي تَقولُ:

ـ يا ظالِمِ.. أَلا تَرى هَذا المِسْكينَ، إِنَّهُ يَكادُ يَخْتَنِقُ؟ تَعالَ أَيُّها الرَّجُلُ.. لِأُضَمِّدَ لَكَ جِراحَكَ.

قادَتْني إلى المَطْبَخِ، وَأَخَذَتْ تُبَلِّلُ عُنُقي بِماءٍ مُثَلَّجٍ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ التَّعَبَ أَنْهَكَ قوَّتي. وَسَأَلْتُ نَفْسي: تُرى ما كانَ سَيَحِلُّ بي لَوْ لَمْ تُنقِذْني مُدبِّرَةُ المَنْزِلِ مِنْ بَراثِنِ هَذِهِ الحَيَواناتِ؟

وَتَقَدَّمَتْني زيلّلا، وَهيَ تُحَذِّرُني مِنْ إِحْداثِ ضَجَّةٍ تَلْفِتُ انْتِباهَ سَيِّدِها، فَهو لا يَسْمَحُ لِأَحَدٍ بِدُخولِ الغُرْفَةِ الَّتي سَوْفَ أَنامُ فيها. ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَبَقيتُ وَحْدي.

أَغْلَقْتُ البابَ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ إلى ما حَوْلي أَسْتَطْلِعُ ما تَحْتَويهِ تِلْكَ الغُرْفَةُ مِنْ غَرائِبَ، وَأَبْحَثُ عَنِ الفِراشِ.

كانَ في الغُرْفَةِ: كُرْسيٌّ واحِدٌ، خِزانَةٌ لِلْمَلابِسِ، وَصُنْدوقٌ خَشَبيٌّ كَبيرٌ لَهُ فُتحاتٌ مُربَّعَةٌ في أَعْلاهُ. وَعَلى حافَّةِ النّافِذَةِ كانَ عَدَدٌ مِنَ الكُتُبِ، أَمّا عَلى حافَّةِ الصُّنْدوقِ فَقَدْ نُقِشَتْ بَعْضُ

الكِتاباتِ بِشَكْلٍ فَنّيٍّ مُخْتَلِفٍ. وَكانَتِ الكِتاباتُ تَحْمِلُ هَذِهِ الأَسْماءَ: (كاتْرين إيرنْشو، كاتْرين هيثْكليف، كاتْرين لِنْتونْ).

كُنْتُ أَقْرأُ هَذِهِ الأَسْماءَ من دونِ أَنْ أَفْهَمَ مِنْها شَيْئاً. ثُمَّ أَلْقَيْتُ رَأْسي عَلى الفِراشِ لِأَسْتَريحَ، فَشَعَرْتُ أَنَّ الشَّمْعَةَ سَقَطَتْ فَوْقَ الكُتُبِ، وَبَدأَتْ رائِحَةُ الوَرَقِ المُحْتَرِقِ تَنْتَشِرُ. وَأَبْعَدْتُ الشَّمْعَةَ عَنِ الكِتابِ وَأَخَذْتُهُ بِيَدي أَتَفَحَّصُهُ قليلاً. كانَ هوَ الكِتابَ المُقَدَّسُ واسْمُ كاتْرين مَكْتوباً عَلى الصَّفْحَةِ الأولى مِنْهُ، وَإِلى جانِبِهِ تاريخٌ يَعودُ إِلى حَوالي رُبْعِ قَرْنٍ.

وَبَدا لي أَنَّ هَذِهِ الكُتُبَ قَدِ اسْتُعْمِلَتْ كَثيراً وَلَكِنْ في سَبيلِ التَّسْلِيَةِ، إِذْ إِنَّ الكِتاباتِ الصِّبْيانِيَّةَ كانَتْ تَمْلأُ صَفَحاتِها. وَكانَ جَزْءٌ مِنْها عَلى صورَةِ مُذَكَّراتٍ يَوْمِيَّةٍ. وَمِمّا لَفَتَ نَظَري وَبَعَثَ السُّرورَ في نَفْسي رَسْمٌ كاريكاتوريٌّ[1] لِلْعَجوزِ يوسُف.

إِنَّ كَلِماتِ «كاتْرين» جَعَلَتْني أَهْتَمُّ بِها، عِلْماً بِأَنَّ كِتاباتِها أَصْبَحَتْ باهِتَةً لِمُرورِ الزَّمَنِ.

بَدأَ النُّعاسُ يُداعِبُ جُفوني، وَلَمْ أَعُدْ أَقْوى عَلى مُواصَلَةِ القِراءَةِ. فَتَمَدَّدْتُ في فِراشي. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ، اسْتَسْلَمْتُ لِنَومٍ عَميقٍ. قَضَيْتُ لَيْلَةً مُرْعِبَةً، وَظَنَنْتُ أَنَّ الشّايَ الَّذي شَرِبْتُهُ والمِزاجَ السَّيِّءَ الَّذي عِشْتُ فيهِ هُما السَّبَبُ في ذَلِكَ.

بَدأَتِ الأَحْلامُ المُزْعِجَةُ تَتَراءى لي وَتُثيرُ الخَوْفَ في نَفْسي،

---

(١) رسم كاريكاتوري: رسم تشبيهي وغالباً ما يكون مضحكاً.

فَمرَّةً رَأَيْت يوسُفَ يَأْخُذني إلى الكَنيسَةِ الّتي مَرَرْتُ بِها وَأَنا في طَريقي إلى المُرْتَفعاتِ. وَقَدْ طالَتْ خُطْبَةُ القَسّ المُؤَلَّفَةُ مِنْ أَرْبَعمائَةٍ وَتِسْعين جُزْءاً، فَداهَمَني التَّعَبُ وَأَخَذْتُ أَتَثاءَبُ مَرَّةً بَعْد مَرَّةٍ، فَأَمَرَ القَسُّ الحاضِرينَ بِمُعاقَبَتي بِسَبَبِ شُرودي.

واتَّجَهَ الحاضِرونَ نَحْوي وَهُمْ يَحْمِلونَ العِصِيَّ وَكانَ أَوَّلَهُم يوسُفُ.

أَيْقَظَتْني أَصْواتُ القَسّ المُدَوّيَةُ وَتَأَكَّدْتُ أَنَّ أَغْصانَ الأَشْجارِ هِيَ الّتي تُسَبِّبُ هَذا الضَّجيجَ.

عُدْتُ لِلْنَّوْمِ مَرَّةً ثانيَةً، وَكانَ الحُلْمُ هَذِهِ المَرَّةَ أَسْوأَ مِنَ الأولِ، إِذْ كانَتِ الرّيحُ تَدْفَعُ بِقوَّةٍ غُصْنَ شَجَرَةٍ نَحْوَ النّافِذَةِ بِشَكْلٍ مُتَتالٍ.

وَأَقْلَقَني هَذا الصَّوْتُ، فَقُلْتُ في نَفْسي: يَجِبُ أَنْ أُبْعِدَ هَذا الغُصْنَ اللَّعينَ.

نَهَضْتُ مِنْ فِراشي وَحاوَلْتُ أَنْ أَفْتَحَ النّافِذَةَ فَلَمْ أَتَمَكَّنْ. كَسَرْتُ زُجاجَها، وَمَدَدْتُ يَدي لِكَيْ أُمْسِكَ بِالغُصْنِ، وَإِذْ بِيَدٍ بارِدَةٍ كالثَّلْجِ تُطَوّقُ يَدي. فامْتَلَكَني الرُّعْبُ، وَحاوَلْتُ أَنْ أَسْحَبَ يَدي إلى الدّاخِلِ، لَكِنَّ هَذِهِ اليَدَ شَدَّدَتْ قَبْضَتَها. وَسَمِعْتُ صَوْتاً حَزيناً يَقولُ:

ـ دَعْني أَدْخُلْ. . دَعْني أَدْخُلْ. فَسَأَلْتُ:

ـ مَنْ أَنْتِ. بِحَقّ السَّماءِ، مَنْ أَنْتِ؟

ـ أَنا كاثْرين لِنْتون، لَقَدْ ضَلَلْتُ طَريقي، وَأَخيراً اهْتَدَيْتُ إلى البَيْتِ.

لَمَحْتُ وَجْهَ طِفْلٍ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَهو يُرَدّدُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: آه! إِنَّهُ وَجْهُ كاثْرين. وَصاحَتْ:

ـ دَعْني أَدْخُلْ. . أَرْجوكَ. فَقُلْتُ:

ـ كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُدْخِلَكِ وَأَنْتِ مُمْسِكَةٌ بِيَدي؟ اُتْرُكي يَدي فَأَسْمَحُ لَكِ بِالدُّخولِ.

سَحَبْتُ يَدي بِسُرْعَةٍ ثُمَّ جَمَعْتُ الكُتُبَ فَوْقَ بَعْضِها وَأَغْلَقْتُ أُذُني كَيْ لا أَسْمَعَ ذَلِكَ الصَّوْتَ الحَزينَ.

خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّني بَقيتُ عَلى هَذِهِ الحالَةِ أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ ساعَةٍ، وَكانَتْ صَيْحاتُ الاسْتِغاثَةِ ما زالَتْ تَتَرَدَّدُ. فانْتابَني الفَزَعُ وَكِدْتُ أَشْعُرُ بِالجُنونِ، فَصَرَخْتُ قائِلاً:

ـ اذْهَبي مِنْ هُنا، لَنْ أَسْمَحَ لَكِ بِالدُّخولِ وَلَوْ بَقيتِ تَتَوَسَّلينَ عِشْرينَ سَنَةٍ.

ـ بَقيتُ عِشْرينَ سَنَةً وَأَنا تائِهَةٌ في البَراري.

وَفي الوَقْتِ نَفْسِه، كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتاً مِنْ وَراءِ النّافِذَةِ، وَقَدْ أُزيحَت الكُتُبُ عَنْ مَوْضِعِها.

حاوَلْتُ القِيامَ مِنْ فِراشي، وَلَكِنَّني عَجِزْتُ عَنِ الحَرَكَةِ، وَخانَتْني قوَّتي، فَأَخَذْتُ أَصْرُخُ بِصَوْتٍ عالٍ. ثُمَّ جَلَسْتُ في فِراشي والعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنّي بِغَزارَةٍ، وَإِذْ بِخُطواتٍ مُسْرِعَةٍ تَقْتَرِبُ مِنْ بابِ الغُرْفَةِ. ثُمَّ دُفِعَ البابُ، وَأُضيئَتِ الغُرْفَةُ، وَسَمِعْتُ صَوْتاً خافِتاً يَسْأَلُ: «مَنْ هُنا؟».

كانَ هيثْكليف يَقِفُ قُرْبَ المَدْخَلِ وَهو يَحْمِلُ شَمْعَةً في يَدِهِ،

وَجْهُهُ أَبْيَضُ، وَيَلْبِسُ قَميصاً وَسِرْوالاً. إِذْ ذاكَ كانَ مِنَ الواجِبِ أَنْ أَكْشِفَ عَنْ وُجودي رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُ جَواباً. فَهَتَفْتُ قائِلاً:

ـ أَنا ضَيْفُكَ يا سَيِّدي، اعْذِرْني لِأَنَّني صَرَخْتُ نَتيجَةَ حُلْمٍ مُزْعِجٍ.

والحَقُّ إِنَّ ظُهوري المُفاجِئَ قَدْ سَبَّبَ صَدْمَةً كَبيرَةً لِهيثْكْليف، فَأَخَذَ يَلْعَنُ وَيَداهُ تَرْتَجِفانِ، وَقالَ:

ـ مَنْ أَرْشَدَكَ إِلى هَذِهِ الغُرْفَةِ؟

ـ خادِمَتُكَ زيلّلا يا سَيِّدي، وَيَبْدو لي أَنَّها كانَتْ تُحاوِلُ التَّثَبُّتَ مِنْ وُجودِ أَرْواحٍ شِرّيرَةٍ في هَذِهِ الغُرْفَةِ.

ـ ماذا تَعْني بِقَوْلِكَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً حاوَلَ ذَبْحَكَ لَما صَدَرَ عَنْكَ هَذا الصُّراخُ المُفْزِعُ؟

ـ أَنا واثِقٌ يا سَيِّدي مِنْ أَنَّ هَذا الشَّبَحَ الصَّغيرَ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ دُخولِ الغُرْفَةِ لَكانَ مَصيري المَوْتُ. أَمّا بِخُصوصِ كاتْرين، فَقَدْ قالَ لي الشَّبَحُ إِنَّها أَمْضَتْ عِشْرينَ سَنَةً تائِهَةً في البَراري.

هُنا قاطَعَني هيثْكْليف صارِخاً:

ـ كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلى هَذا التَّصَرُّفِ؟ أَأَنْتَ مَجْنونٌ؟

ثُمَّ أَخَذَ يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِراحَتَيْهِ وَعَلاماتُ التَّأَثُّرِ مُرْتَسِمَةٌ عَلى وَجْهِهِ.

وَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ مِن دونِ أَنْ أَفْهَمَ سَبَبَ تَصَرُّفِهِ، ثُمَّ بَدَأْتُ أَرْتَدي مَلابِسي وَأَنا أَقولُ: «لَنْ أَتَطَفَّلَ عَلَيْكَ بَعْدَ اليَوْمِ يا

سَيِّدي. سَأَخْرُجُ الآنَ إِلى الفَناءِ وَأَبْقى إِلى أَنْ يَطْلُعَ النَّهارُ..»

فَرَدَّ عَلَيَّ قائِلاً:

ـ يُمْكِنُكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلى غُرْفَتي كَيْ تَسْتَريحَ.

الْتَفَتُّ نَحْوَهُ لِأَسْتَوْضِحَ مِنْهُ الطَّريقَ المُؤَدِّيَةَ لِلطّابِقِ الأَرْضِيِّ. وَهُنا رَأَيْتُهُ يَتَّجِهُ إِلى الفِراشِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ النّافِذَةَ، وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ. وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ فَقَدَ السَّيْطَرَةَ عَلى شُعورِهِ. ثُمَّ أَخَذَ يَقولُ بِصَوْتٍ يَخْنُقُهُ الحُزْنُ:

ـ ادْخُلي يا كاتي.. أَرْجوكِ.. تَعالي، انْصِتي إِلَيَّ هَذِهِ المَرَّةَ يا كاتْرين..

لَمْ يَكُنْ هُنالِكَ أَحَدٌ يَسْتَجيبُ لِنِدائِهِ سِوى الثُّلوجِ والرِّياحِ العاصِفَةِ.

خَرَجْتُ مِنَ الغُرْفَةِ بِهُدوءٍ، وَذَهَبْتُ إِلى المَطْبَخِ حَيْثُ كانَتْ بَقايا النّارِ في المِدْفَأَةِ ما زالَتْ مُشْتَعِلَةً. وَهُناكَ تَمَدَّدْتُ فَوْقَ أَحَدِ المَقاعِدِ وَأَنا أُفَكِّرُ فيما حَدَثَ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مِنْ واجِبي أَنْ أُخْفِيَ عَنْ هيثْكْليف حِكايَةَ الكابوسِ الَّذي مَلَأَ قَلْبي خَوْفاً وَفَزَعاً.

نَهَضْتُ قَبْلَ طُلوعِ الفَجْرِ، وَكانَ البَرْدُ شَديداً. وَتَبِعَني هيثْكليف وَعَرَضَ عَلَيَّ مُرافَقَتَهُ لِاجْتيازِ المُسْتَنْقَعاتِ الَّتي أَصْبَحَتْ رُقْعَةً مُمْتَدَّةً مِنَ الثَّلْجِ. وَقَدْ رافَقَني حَتّى وَصَلْنا مَدْخَلَ «تراشْ كروس»، ثُمَّ تَرَكَني مُوَدِّعاً، لَكِنَّني ضَلَلْتُ الطَّريقَ مَرّاتٍ عَديدَةً قَبْلَ وُصوليَ المَزْرَعَةَ. وَما كادَتْ قَدَمايَ تَطَآنِ مَدْخَلَ المَزْرَعَةِ حَتّى هُرِعَتْ مُدَبِّرَةُ مَنْزِلي السَّيِّدَةُ «دين» تُرَحِّبُ بِقُدومي وَهِيَ تُبْدي ارْتِياحَها قائِلَةً:

- شُكْراً للهِ على سَلامَتِكَ.

صَعَدْتُ إلى الطّابقِ العُلْويِّ بَعْدَ جُهْدٍ، فاغْتَسَلْتُ واسْتَبْدَلْتُ ثيابي المُمزَّقَةِ، ثُمَّ تناوَلْتُ فُنْجاناً مِنَ القَهْوَةِ أعادَ إِلَيَّ نَشاطي، وَجَلَسْتُ في مَكْتَبي أَنْتَظِرُ طَعامَ العَشاءِ.

وَحَضرَتِ السَّيِّدَةُ «دين» وَبيَدِها الطَّعامُ، فَطَلَبْتُ مِنها أَنْ تَجْلِسَ بِقُرْبي وَسَأَلْتُها:

- إِنَّكِ قَضَيْتِ هُنا أَعْواماً، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟

- نَعَمْ يا سَيِّدي. لَقَدْ جِئْتُ مُنْذُ ثَمانيَةَ عَشَرَ عاماً، عِنْدَما تَزَوَّجَتْ سَيِّدَتي. أَبْقاني سَيِّدي بَعْدَ أَنْ تُوفِّيَتْ زَوْجَتُهُ لِإِدارَةِ المَنْزِلِ.

- أَلَيْسَ هيثْكليف ثَرِيّاً حَتّى يُضْطَرَّ لِلْعَيْشِ في بَيْتٍ مُتَواضِعٍ!

- كَلاّ. إِنَّهُ ثَرِيٌّ، وَلَكِنَّهُ بَخيلٌ. كانَ لَهُ وَلَدٌ، تُوُفِّيَ قَبْلَ بِضْعَةِ أَعْوامٍ.

- مَنْ هي السَّيِّدَةُ الَّتي عِنْدَهُ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَنْتِ يا مِسِزْ دين؟ وَمَنْ هو الشّابُّ إيرنشو؟

- إِنَّها ابْنَةُ كاثْرين لِنْتون، أَمّا الشّابُّ فَهو هارْتيونْ إيرِنْشو، ابْنُ أُخْتِ السَّيِّدَةِ كاثْرين وابْنُ عَمِّ السَّيِّدَةِ الَّتي رَأَيْتَها في مَنْزِلِ هيثْكِليْف. ما رَأْيُكَ يا مِسْتَر لوكوود بِالسَّيِّدِ هيثْكِليف؟

- إِنَّه جافٌّ، هَلْ تَعْلَمينَ شَيْئاً عَنْ ماضيهِ؟

- كُلَّ شَيْءٍ. وَلَكِنَّكَ تَبْدو مُتْعَباً اللَّيْلَةَ، فاخْلُدِ الآنَ إِلى الرّاحَةِ، وَسَأَرْوي لَكَ كُلَّ ما أَعْرِفُهُ غَداً.

- كَلّا، لا يُمْكِنُ أَنْ أَنامَ ما لَمْ تَرْوي لي حِكايَةَ هَذِهِ العائِلَةِ.

- إِذَنْ، أَفْعَلُ ذلِكَ، بَعْدَ أَنْ أُحْضِرَ كُبَّةَ الصّوفِ[1]، ثُمَّ أَعودُ.

كانَ رَأْسي مُلْتَهِباً، وَأَنا أَرْتَجِفُ مِنْ دَوْرِ البُرودَةِ الَّذي كانَ يَنْتابُني بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ، فالأَحْداثُ الَّتي مَرَرْتُ بِها خِلالَ يَوْمَيْنِ كانَتْ مُؤَثِّرَةً جِدّاً. وَقَدْ أَمْضَيْتُ أُسْبوعَيْنِ وَأَنا مُسْتَلْقٍ في الفِراشِ أَسْتَمِعُ لِلمِسِزْ دين. وَقَدْ بَدَأَتْ حَديثَها قائِلَةً:

«إِنَّ عائِلَةَ إيرِنْشو هي الَّتي بَنَتْ ذَلِكَ القَصْرَ قَبْلَ ثَلاثْمِائَةِ عامٍ. كانَتْ والِدَتي تَعْمَلُ عِنْدَ إيرِنْشو الكَبيرِ كَمُرَبِّيَةٍ لِلطِّفْلَيْنِ: هِنْدلي وَكاثْرين، أَمّا أَنا فَكُنْتُ أَلْعَبُ مَعَهُما وَأُساعِدُ والِدَتي في بَعْضِ الأَعْمالِ البَسيطَةِ الَّتي توكِلُها إِلَيَّ.

في صَباحِ أَحَدِ أَيّامِ الصَّيْفِ، ذَهَبَ إيرِنْشو الكَبيرُ إِلى ليفَرْبول بَعْدَ أَنْ قَبَّلَ طِفْلَيْهِ وَطَلَبَ مِنْ يوسُفَ الخادِمِ أَنْ يُلَبِّيَ طَلَبَهُما ضِمْنَ المَعْقولِ.

وَقَدْ طَلَبَ هِنْدلي مِنْ والِدِهِ أَنْ يُحْضِرَ كَماناً، أَمّا كاتي فَقَدْ طَلَبَتْ مِنْهُ سَوْطاً مَعَ أَنَّها لَمْ تَكُنْ قَدْ بَلَغَتْ السّادِسَةَ مِنَ العُمْرِ، فَلَقَدْ كانَتْ مولَعَةً بِرُكوبِ الخَيْلِ.

عادَ المِسْتَر إيرِنْشو مِنْ رِحْلَتِهِ مَساءَ اليَوْمِ الثّالِثِ في السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَلْقى بِنَفْسِهِ فَوْقَ أَحَدِ المَقاعِدِ وَهو يَضْحَكُ، ثُمَّ بَسَطَ مِعْطَفَه وَقالَ:

---

(١) كبة الصوف: لفة من خيطان الصوف.

ـ انْظُري يا زَوْجَتي وَتَقبّلي هَذِهِ الهَدِيَّةِ، إنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ.

تَجَمَّعْنا حَوْلَهُ لِنَرى الهَدِيَّةَ، فَكانَتْ غُلاماً قَذِراً، أَسْوَدَ الشَّعْرِ، لا يَكادُ يَسْتَطيعُ السَّيْرَ أَوِ الكَلامَ.

غَضِبَتِ السَّيِّدَةُ أَيرِنْشو واسْتَعَدَّتْ لِتُلْقيَ الغُلامَ في الخارِجِ ثُمَّ سَأَلَتْ زَوْجَها:

ـ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذا اللَّقيطِ؟

ـ: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ في أَحَدِ أَزِقَّةِ ليفَرْبول وَهو يَتَضَوَّرُ جوعاً، فَأَشْفَقْتُ عَلَيْهِ وَأَحْضَرْتُهُ مَعي، إِذْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ المَدينَةِ يَعْرِفُ عَنْهُ أَوْ عَنْ عائِلَتِهِ شَيْئاً».

ثُمَّ اسْتَدارَ نَحْوي وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أَعْتَنيَ بِنَظافَتِهِ وَأُعْطِيَهُ مَلابِسَ جَديدَةً وَأَدَعَهُ يَنامُ مَعَ الأَطْفالِ.

كانَ هُنْدلي وَكاتي يُراقِبانِ ما يَحْدُثُ ثُمَّ أَخَذا يَبْحَثانِ عَنِ الهَدايا الَّتي وَعَدَهُما بِها والِدُهُما. بَكى هُنْدلي بِشِدَّةٍ عِنْدَما أَخْرَجَ الكَمانَ مِنْ جَيْبِ والِدِهِ وَوَجَدَهُ مُحَطَّماً. أَمّا كاتي، فَراحَتْ تَهْزَأُ بِالطِّفْلِ الغَريبِ عِنْدَما وَجَدَتْ أَنَّ سَوْطَها قَدْ فُقِدَ بِسَبَبِهِ. وَقَدْ رَفَضا بِعِنادٍ مُشارَكَةَ هَذا الطِّفْلِ فِراشَهُما أَوِ السَّماحَ لَهُ بِدُخولِ الغُرْفَةِ الَّتي يَنامانِ فيها.

تَرَكْتُ الطِفْلَ مُسْتَلْقِياً فَوْقَ الدَرَجِ عَلى أَمَلِ أَنْ يُغادِرَهُ في الصَّباحِ، لَكِنَّهُ زَحَفَ إِلى بابِ غُرْفَةِ إيرِنْشو وَبَقِيَ حَتّى صَباحِ اليَوْمِ التّالي.

وَطَرَدَني السَّيِّدُ إيرِنْشو مِنَ البَيْتِ، فَعُدْتُ إِلَيْهِ ثانِيَةً بَعْدَ أَنْ

أَطْلَقوا عَلى الطِّفْلِ الصَّغيرِ اسْمَ هيثْكْليف وَكانَ هَذا اسْماً لابْنِ إيرِنْشو الَّذي ماتَ وَهو صَغير.

قامَتِ الصَّداقَةُ بَيْنَ كاتي وَهيثكِليف، أَمّا هِنْدلي، ازْدادَتْ كَراهِيَتُهُ لَهُ.

كانَ هيثْكْليف صَبوراً، قَنوعاً، وَقَدْ اعْتادَ المُعامَلَةَ السَّيِّئَةَ مِنْ دونِ أَنْ يَتَذَمَّرَ أَوْ يَذْرِفَ دَمْعَةً واحِدَةً. وَقَدْ انْتابَ السَّيِّدَ إيرِنْشو غَضَبٌ شَديدٌ عِنْدَما عَلِمَ بِسوءِ مُعامَلَةِ وَلَدَيْهِ لَهُ، فازْدادَ حُبّاً لَهُ. وَهَذا ما جَعَلَ هَنْدلي يَنْظُرُ إِلى والِدِهِ نَظْرَةً تَكْمُنُ فيها المَرارَةُ والحِقْدِ.

وَأَخَذَتْ تَمُرُّ الأَيّامُ، وَصِحَّةُ السَّيِّدِ إيرِنْشو تَتَدَهْوَرُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ. أَقْعَدَهُ المَرَضُ، وَكانَتْ أَطْرافُهُ تَرْتَجِفُ بِشِدَّةٍ عِنْدَما تَبْدو لَهُ عَداوَةُ هَنْدلي لِهَذا اليَتيمِ، أَدْرَكَ أَنَّ حُبَّهُ لِهيثْكْليف هو سَبَبُ كَراهِيَةِ وَلَدِهِ لَهُ. أَمّا نَحْنُ فَكُنّا جَميعاً نَتَجَنَّبُ إِزْعاجَ السَّيِّدِ وَنَسْعى لِتَحْقيقِ رَغَباتِهِ.

وَأَخيراً نَصَحَنا القَسُّ الَّذي كانَ مُطَّلِعاً عَلى أَحْوالِ العائِلَةِ بِإِرْسالِ هِنْدلي إِلى المَدْرَسَةِ، وَوافَقَ والِدُهُ عَلى ذَلِكَ، وَتَأَمَّلْنا خَيْراً. وَهُنا لَمْ نَسْلَمْ مِنْ شَرِّ يوسُفَ، إِذْ كانَ يَخْتَلِقُ قِصَصاً مُثيرَةً ضِدَّ هيثْكْليف وَكاتْرين وَيَرْويها لِسَيِّدِهِ.

كانَتْ كاتْرين تَفيضُ نَشاطاً وَحَيَوِيَّةً، تَنْهَضُ صَباحاً باكِراً، فَتُمارِسُ الرِّياضَةَ واللَّعِبَ وَلا يُفارِقُ فَمَها الضَّحِكَ والغِناءَ مِن دونِ تَعَبٍ، مِنَ الصَّباحِ حَتّى المَساءِ، وَتَطْلُبُ مِنَ الَّذينَ حَوْلَها أَنْ يُشارِكوها عَمَلَها هَذا، وَتَغْضَبُ إِنْ لَمْ يَفْعَلوا ذَلِكَ. كانَتْ

عَيْناها جميلَتَيْنِ، وابْتِسامَتُها الرَّقيقَةُ لا تُفارِقُ ثَغْرَها.

أَحَبَّتْ هيثْكْليف مِنْ كُلِّ قَلْبِها وَأَصْبَحْنا لا نَسْتَطيعُ إِبْعادَها عَنْهُ، فَجَعَلْنا العُقوبَةَ لَها عِنْدَما تَرْتَكِبُ ذَنْباً، هيَ التَّفْريقَ بَيْنَهُما. وَكَثيراً ما كانَتْ تُعاقَبُ لِأَجْلِه.

وَماتَ السَّيِّدُ الكَبيرُ في أَحَدِ أَيّامِ شَهْرِ أُكْتوبَر، وَمِمّا أَثارَ دَهْشَتَنا، وُصولُ هِنْدلي مُباشَرَةً بَعْدَ دَفْنِ والِدِهِ، وَبِرِفْقَتِهِ سَيِّدَةٌ لَمْ يُعْلِمْنا أَنَّها زَوْجَتُهُ لِأَحَدِ الأَسْبابِ، فَرُبَّما كانَتْ فَقيرَةً أَوْ مِنْ عائِلَةٍ مُتَواضِعَةٍ.

وَكانَتْ زَوْجَتُهُ نَحيلَةً، لَكِنَّها يافِعَةٌ، بَريقُ الذَّكاءِ بادٍ في عَيْنَيْها. وَلَكِنَّني لاحَظْتُ أَنَّ أَنْفاسَها تَتَلاحَقُ بِسُرْعَةٍ، وَأَنَّها تَلْهَثُ وَتَسْعُلُ سُعالاً شَديداً كُلَّما صَعَدَتْ الدَّرَجَ..

أَمّا هِنْدلي، بَدا تَغَيُّرٌ مَلْحوظٌ في حَديثِهِ وَلِباسِهِ. اتَّخَذَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ كاتي شَقيقَةً لَها. وَذَلِكَ في بادِئِ الأَمْرِ، لَكِنَّ حُبَّها لَها بَدَأَ يَتَناقَصُ شَيْئاً فَشَيْئاً. وَأَخيراً بَدَأَتْ تُرَدِّدُ على مَسامِعِ زَوْجِها أَحاديثَ كَشَفَتْ بِها عَنْ كَراهِيَتِها لِهيثْكْليف، وَهَذا ما أَيْقَظَ الكَراهِيَةَ القَديمَةَ الَّتي كانَ يَحْمِلُها لَهُ في قَلْبِهِ، فَأَبْعَدَهُ عَنْ رِفْقَتِهِمْ وَحَرَمَهُ مِنْ تَلَقّي الدُّروسِ عِنْدَ القَسِّ، وَتَرَكَهُ يَعْمَلُ في الحَقْلِ كَغَيْرِهِ مِنَ العُمّالِ.

تَحَمَّلَ هيثْكْليف وَضْعَهُ هَذا بِصَبْرٍ، وَيَعودُ الفَضْلُ في ذَلِكَ لِكاتْرين الَّتي كانَتْ تَقِفُ إِلى جانِبِهِ، تُساعِدُهُ في عَمَلِهِ، وَتَلْعَبُ مَعَهُ. وَهُنا أَصْبَحا بَعيدَيْنِ عَنْ هَنْدلي، يَشْعُرانِ بِمُتْعَةٍ كَبيرَةٍ عِنْدَما

كانا يَهْرُبانِ إِلى المُسْتَنْقَعاتِ وَيَقْضِيانِ النَّهارَ هُناكَ بَعيداً عَنْ عُيونِ المُتَطَفِّلينَ.

وَذاتَ مَساءٍ أُبْعِدَ هيثْكْليف وَكاتي عَنْ غُرْفَةِ الجُلوسِ لِصُراخِهِما المُزْعِجِ، وَعِنْدَما حانَ وَقْتُ العَشاءِ، ذَهَبْتُ لِدَعْوَتِهِما فَلَمْ أَعْثُرْ عَلَيْهِما. فاضْطُرِرْتُ أَنْ أُخْبِرَ هَنْدلي. وَهُنا، جُنَّ جُنونُهُ، وَأَمَرَ بِإِغْلاقِ الأَبْوابِ وَعَدَمِ السَّماحِ لَهُما بِدُخولِ البَيْتِ. نامَ الجَميعُ، وَبَقيْتُ جالِسَةً أَمامَ النّافِذَةِ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، سَمِعْتُ وَقْعَ خُطواتٍ، وَلَمَحْتُ هيثْكْليف بِمُفْرَدِهِ، فَصَرَخْتُ:

- أَيْنَ كاتي، هَلْ أُصيبَتْ بِمَكْروهٍ؟

- كَلّا.. إِنَّها في مَزْرَعَةِ تَراشْ كُروس. دَعيني أَنْزَعُ ثِيابي المُبَلَّلَةَ، وَبَعْدَها أَرْوي لَكِ ما حَدَثَ.

كانَ يَخْلَعُ مَلابِسَهُ وَيُحَدِّثُني بِما حَصَلَ مَعَهُما: حَيْثُ أُصيبَتْ كاتْرين بِجُرْحٍ في قَدَمِها بَعْدَ اجْتيازِهِما سورَ المَزْرَعَةِ وَمُلاحَقَةِ الكِلابِ لَهُما.

۞ ۞ ۞

وَفي اليَوْمِ التّالي، حَضَرَ «لِنْتون» لِزيارَتِنا، وَأَخَذَ يُحَدِّثُ هِنْدلي وَيُحَدِّدُ لَهُ مَسْئولِيّاتِهِ نَحْوَ شَقيقَتِهِ.

غَضِبَ هِنْدلي كَثيراً وَهَدَّدَ هيثْكْليف بِالطَّرْدِ مِنَ القَصْرِ إِنْ لَمْ يَكُفَّ عَنْ مُخاطَبَةِ كاتْرين.

وبَقيَتْ كاتْرين خَمْسَةَ أَسابيعَ في «تْراشْ كُروسْ» حَتّى شُفيَتْ تَماماً. آنَذاكَ تَعَلَّمَتْ كَيْفَ تَرْتَدي المَلابِسَ الفاخِرَةَ وَتَهْتَمُّ

بِمَظْهَرِها الخارِجيّ. ثُمَّ إنَّها وَصَلَتْ إلى القَصْرِ وَتَرَجَّلَتْ عَنْ حِصانِها الأَسْوَدِ، فَصَرَخَ هِنْدلي مُسْتَغْرِباً:

ـ «ما هَذا يا كاتي، إنَّكِ تَبْدينَ سَيِّدَةً جَميلَةً».

وَهُنا تَقَدَّمَتْ كاتي وَقَبَّلَتْني بِرِقَّةٍ، وَراحَتْ تَبْحَثُ عَنْ هيثكِليف الَّذي تَغَيَّرَتْ أَحْوالُهُ وَمَظْهَرُهُ، إذْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ غَيْري مَنْ يَحُثُّهُ عَلى النَّظافَةِ. لَقَدْ كانَتْ ثِيابُهُ مُلَطَّخَةً بالأَوْحالِ، وَشَعْرُهُ أَشْعَثَ، أَمّا وَجْهُهُ فَكانَ مُتَّسِخاً ويداه أيضاً مُتَّسِخَتَيْنِ. وَهَذا ما جَعَلَهُ يَبْتَعِدُ عَنْ أَنْظارِ الَّذينَ يُحيطونَهُ. ثُمَّ صاحَ هَنْدلي قائِلاً:

ـ اقْتَرِبْ يا هيثكِليف وَرَحِّبْ بِقُدومِ الآنسةِ كاتي، كَباقي الخَدَمِ..

كانَ هِنْدلي يَتَمَتَّعُ بِرُؤْيَةِ هيثكِليف ذَليلاً. غَيْرَ أَنَّ هيثكِليف لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكانِهِ بَلْ هَرَعَتْ كاتي إلَيْهِ وَراحَتْ تُقَبِّلُ وَجْنَتَيْهِ مَرّاتٍ عَديدَةٍ. ثُمَّ تَراجَعَتْ وَأَخَذَتْ تَضْحَكُ وَهِيَ تَقولُ:

ـ ماذا دَهاكَ يا عَزيزي؟ لِمَ وَجْهُكَ أَسْوَدُ؟ أَمْ أَنَّني اعْتَدْتُ عَلى رُؤْيَةِ إدْغار وَإيزابيلّا فَأَصْبَحْتُ أَراكَ هَكَذا؟

وَقاطَعَها هَنْدلي قائِلاً:

ـ صافِحْها يا هيثْكليف.

فَأَجابَهُ:

ـ لَنْ أُصافِحَها، وَلا أَقْبَلُ أَنْ أَكونَ أُضْحوكَةً لِأَحَدٍ.

ثُمَّ حاوَلَ هيثكليف أَنْ يَنْسَحِبَ مِنْ وَسَطِ الجُموعِ وَلَكِنَّ كاتي تَقَدَّمَتْ مِنْهُ وَهِيَ تَقولُ:

ـ إنَّني لَمْ أَقْصِدْ السُّخْرِيَةَ مِنْكَ، إنَّما مَنْظَرُكَ أَثارَني وَأَنْتَ غاضِبٌ. إنَّكَ تَبْدو قَذِراً. فَما الَّذي غَيَّرَكَ يا عَزيزي؟

تَأَلَّمَ هيثكْليف عِنْدَما أَدْرَكَ أَنَّ كاتي تَنْظُرُ إلى مَلابِسِها وَهِيَ تَخْشى أَنْ تَكونَ قَدْ اتَّسَخَتْ مِنْ مُلامَسَتِها لَهُ، فَقالَ: «ما دَعَوْتُكِ لِمُلامَسَتي». ثُمَّ سَحَبَ يَدَهُ مِنْ يَدِها، وانْدَفَعَ يَرْكُضُ، بَيْنَما كانَتْ ضَحِكاتُ هَنْدلي وَزَوْجَتِهِ السّاخِرَةِ تُلاحِقُهُ. أَمّا كاتْرين فَأَخَذَتْها الحَيْرَةُ.

ثُمَّ كانَتْ لَيْلَةُ عيدِ الميلادِ. فَذَهَبَ يوسُفُ لِلصَّلاةِ، وَجَلَسْتُ وَحيدَةً في المَطْبَخِ. وَهُناكَ وافَتْني[1] بَعْضُ الذِّكْرَياتِ: تَذَكَّرْتُ سَيِّدي السّابِقَ وَعَطْفَهُ عَلَيَّ، وَحُبَّهُ لِهيثْكليف. أَمّا كاتْرين فَكانَتْ بِرِفْقَةِ شَقيقِها وَزَوْجَتِهِ تَنْتَقي الهَدايا الَّتي سَتُقَدِّمُها لِإدْغار وَشَقيقَتِهِ.

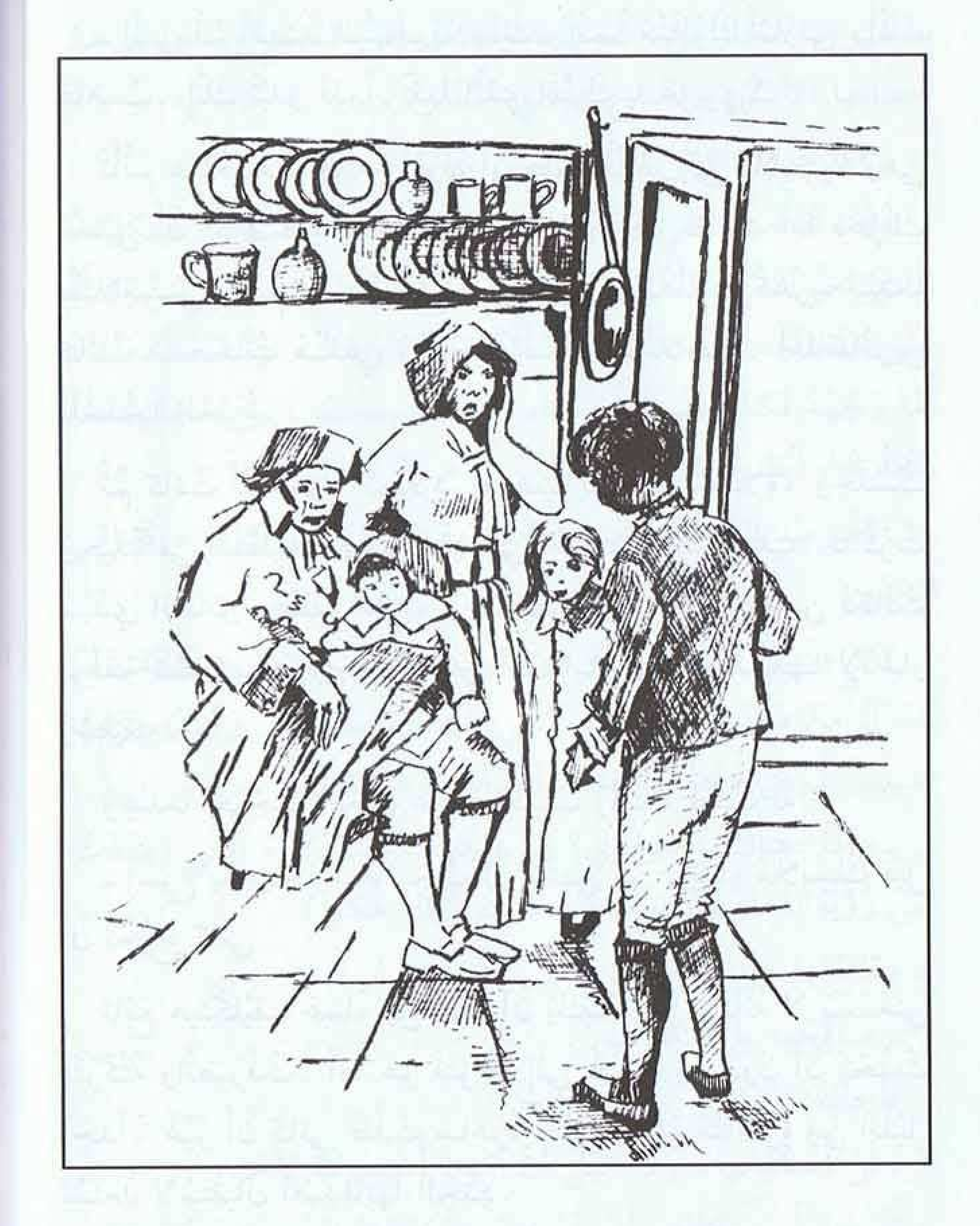
وَعِنْدَما خَرَجْتُ أَبْحَثُ عَنْ هيثْكليف رَأَيْتُهُ، فَقُلْتُ لَهُ:

ـ أَسْرِعْ يا هيثْكليف، يَجِبُ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ ارْتِداءِ مَلابِسِكَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ كاتي.

تابَعَ هيثْكليف عَمَلَهُ مِن دونِ أَنْ يَلْتَفِتَ إلَيَّ وَكَأَنَّهُ لا يَسْمَعُني فَتَرَكْتُهُ وانْصَرَفْتُ. أَمّا هوَ فَتَوَجَّهَ إلى غُرْفَتِهِ مِن دونِ أَنْ يُحَدِّثَ أَحَداً. غَيْرَ أَنَّ كاتي ظَلَّتْ ساهِرَةً حَتّى ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ تَسْتَعِدُّ لِاسْتِقْبالِ أَصْدِقائِها الجُدُدِ.

---

(١) وافتني: حضرت إليَّ، قابلتني.



إيرنشو الكبير يأتي بـ«الغجري»

ـ خَرَجَ هيثكْليف إلى المُسْتَنْقَعاتِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي وَلَمْ يَعُدْ إلّا بَعْدَ أنْ تَأَكَّدَ مِنْ ذَهابِ العائِلَةِ إلى الكَنيسَةِ، إذْ وَقَفَ إلى جانِبي وَقالَ:

ـ أُريدُ مِنْكِ أنْ تُلْبِسيني ثيابي الجَديدَةِ، لَقَدْ عَزَمْتُ أنْ أكونَ وَلَداً طَيِّباً. فَأَجَبْتُهُ:

ـ حانَ الوَقْتُ لِتَكونَ كَما تَقولُ. إنَّكَ سَبَّبْتَ الحُزْنَ بِتَصَرُّفاتِكَ لِكاثْرين. وَلَوْ كُنْتُ مَكانَكَ لَأَسْرَعْتُ في تَقْديمِ اعْتِذاري لَها.

وَهُنا أَشْرَقَ وَجْهُ هيثكْليف ثُمَّ تَنَهَّدَ قائِلاً:

ـ كَمْ أَوَدُّ لَوْ تَكونُ لي ثِيابٌ وَثَرْوَةٌ مِثْلَ هَنْدلي.

ـ آه يا هيثكْليف. إنَّكَ تَكْشِفُ عَنْ ضَعْفِ شَخْصِيَّتِكَ. أُنْظُر الآنَ إلى المِرْآةِ، وَقُلْ لي كَيْفَ تَرى نَفْسَكَ. أَلَمْ تُلاحِظْ أَنَّكَ تَبْدو وَسيماً بَعْدَ أنِ اغْتَسَلْتَ وَسَرَّحْتَ شَعْرَكَ، وَتَخَلَّيْتَ عَنْ تَجَهُّمِكَ؟ وَمَنْ يَعْلَم، لَرُبَّما كانَ والِدُكَ أَحَدَ مُلوكِ الشَّرْقِ وَوالِدَتُكَ إحْدى المَلِكاتِ، وَأَنَّكَ خُطِفْتَ مِنْ قِبَلِ بَحّارَةٍ أَشْرارَ!

ظَلَلْتُ أَتَبادَلُ الحَديثَ مَعَ هيثكْليف، إلى أنْ انْفَرَجَتْ أَساريرُهُ، وَبَدَتْ مَعالِمُ الارْتِياحِ في وَجْهِهِ. وَهُنا تَوَقَّفْنا عَنِ الحَديثِ، عِنْدَما سَمِعْنا صَوْتَ عَجَلاتٍ تَدْخُلُ الفِناءَ. فَأَسْرَعْنا نَنْظُرُ مِنَ النّافِذَةِ، فَرَأَيْنا أَبْناءَ لِنْتون يَنْزِلونَ مِنَ العَرَبَةِ، وَعائِلَةَ هَنْدلي تَتَرَجَّلُ عَنْ جِيادِها. أَمّا كاثْرين فَإِنَّها أَمْسَكَتْ بِيَدَيْ إدْغار وَإيزابيلّا، وَدَخَلَتْ مَعَهُما إلى البَيْتِ.

وَطَلَبْتُ مِنْ هيثكْليف أَنْ يُسْرِعَ لِمُلاقاتِهِمْ وَأَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ مِزاجَهُ الجَيِّدَ. وَلِسوءِ حَظِّهِ، الْتَقى بِهِنْدِلي وَجْهاً لِوَجْهٍ، وَعِنْدَما رَآهُ هِنْدِلي نَظيفاً مَرِحاً عَبَسَ بِوَجْهِهِ وَدَفَعَهُ بِقُوَّةٍ إِلى داخِلِ المَطْبَخِ وَأَمَرَ يوسُفَ أَنْ يَصْعَدَ بِهِ إِلى الطّابِقِ الأَعْلى، وَيُبْقيَهُ هُناكَ حَتّى يَنْتَهيَ الغَداءُ. . ثُمَّ قالَ:

- أُخْرُجْ أَيُّها الغَجَرِيُّ. أَتُحاوِلُ تَقْليدَ مَنْ هُمْ أَعْلى مِنْكَ مَنْزِلَةً؟ اقْتَرِبْ لِأُمْسِكَ بِشَعْرِكَ وَسَتَرى كَيْفَ أَقْتَلِعُهُ مِنْ جُذورِهِ.

وَأَضافَ إِدْغار قائِلاً:

- إِنَّ شَعْرَكَ طَويلٌ وَيُشْبِهُ شَعْرَ الخَيْلِ.

وَهُنا لَمْ يَسْتَطِعْ هيثكْليف تَحَمُّلَ هَذا التَّشْبيهِ فَأَمْسَكَ بِطَبَقٍ مَمْلوءٍ بِحَساءِ التُّفّاحِ السّاخِنِ وَرَماهُ بِهِ.

هَرَعَتْ كاتْرين وَإيزابيلّا لَدى سَماعِهِما صُراخَ إِدْغار، أَمّا هَنْدِلي فَقَدْ أَمْسَكَ بِهيثكْليف وَجَرَّهُ إِلى الخارِجِ.

وَوَقَفَتْ كاتْرين مُرْتَبِكَةً لِما حَدَثَ وَقالَتْ لِإِدْغار:

- كانَ حَديثُكَ قاسِياً مَعَ هيثكْليف. سَيُعاقَبُ الآنَ، وَأَنا أَكْرَهُ ذَلِكَ.

واصَلَ إِدْغارُ صُراخَهُ وَهو يَقولُ:

- وَعَدْتُ أُمّي أَنْ لا أُحَدِّثَهُ أَبَداً وَلَكِنْ. . .

فَقاطَعَتْهُ كاتي:

- حَسَناً، لا تَبْكِ، إِنَّ شَقيقي مُقْبِلٌ، فالْزَمِ الهُدوءَ.

اسْتَعادَ كُلُّ واحِدٍ مَرَحَهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَأْدُبَةِ الغَداءِ الَّتي أُقيمَتْ بِمُناسَبَةِ العيدِ. أَمّا كاتي، فَأَخَذَتْ تَبْكي وَرَمَتْ الشَّوْكَةَ مِنْ يَدِها، ثُمَّ انْحَنَتْ لِالْتِقاطِها، وَهيَ تُحاوِلُ أَنْ تُخْفيَ دُموعَها، وَبَقِيَتْ حَزينَةً طَوالَ ذَلِكَ اليَوْمِ.

وَعِنْدَ المَساءِ، راحَتْ كاتي تَتَوَسَّلُ وَتَطْلُبُ مِنْ أَخيها أَنْ يُفْرِجَ عَنْ هيثكْليف وَيَسْمَحَ لَهُ بِحُضورِ الحَفْلَةِ الموسيقيَّةِ الرّاقِصَةِ. . لَكِنَّ هَنْدِلي رَفَضَ طَلَبَها بِحَزْمٍ.

كانَتْ السَّهْرَةُ مُمْتِعَةً بِوُجودِ بَعْضِ المُغَنّينَ، وَلَكِنْ كاتي لَمْ تَكُنْ مَسْرورَةً، بِسَبَبِ سَجْنِ هيثكْليف، إِذْ خَرَجَتْ مِنَ الغُرْفَةِ وَصَعِدَت إِلى الطّابِقِ العُلْويِّ مِن دونِ أَنْ يَشْعُرَ بِها أَحَدٌ.

تَبِعْتُها وَهيَ تواصِلُ صُعودَها إِلى سَطْحِ البَيْتِ حَيْثُ كانَ صَديقُها مَسْجوناً. وَقَدْ أَخَذَتْ تُحَدِّثُهُ والبابُ الحَديديُّ المُقْفَلُ يَفْصِلُ بَيْنَهُما. وَتَوَقَّفَ الموسيقيّونَ، فَأَسْرَعْتُ لِأُنْذِرَ كاتْرين، لَكِنَّها لَمْ تَكُنْ حَيْثُ تَرَكْتُها بَلْ سَمِعْتُ صَوْتَها مِنْ داخِلِ الغُرْفَةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّها دَخَلَتْها مِنَ الكوَّةِ المَوْجودَةِ في أَعْلى السَّطْحِ. وَقَدْ حاوَلْتُ إِقْناعَها وَلَكِنَّها لَمْ تَخْرُجْ إِلّا وَهيثكْليف بِرِفْقَتِها.

وَهَبَطا إِلى المَطْبَخِ. وَقَدَّمْتُ لَهُ الطَّعامَ، فَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ إِلّا القَليلَ لِأَنَّهُ كانَ مَريضاً. وَسَأَلْتُهُ:

- بِماذا تُفَكِّرُ يا هيثكْليف؟

- بِالانْتِقامِ. . . الانْتِقامِ مِنْ هِنْدِلي، وَلَنْ تَهْدَأَ نَفْسي حَتّى يَتَحَقَّقَ أَمَلي هَذا.

- ألا تَخجَلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ إنَّ اللهَ وَحْدَهُ، هو الَّذي يُعاقِبُ الأشْرارَ.

* * *

وَفي صَباحِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ حَزيرانَ ١٧٧٨، وَضَعَتْ زَوْجَةُ هَنْدلي وَلَداً جَميلاً، أَطْلَقوا عَلَيْهِ اسْمَ «هارْتيون»، وَأَعْلَنَ الطَّبيبُ أَنَّ والِدَتَهُ مُصابَةٌ بِمَرَضٍ في رِئَتَيْها وَلَنْ تَعيشَ طَويلاً. وَفي إحْدى اللَّيالي انْتابَتْها نَوْبَةٌ مِنَ السُّعالِ الشَّديدِ، وَما لَبِثَتْ أَنْ فارَقَتِ الحَياةَ وَهِيَ بَيْنَ ذِراعَيْ زَوْجِها.

فَتَوَلَّيْتُ أَنا أَمْرَ الطِّفْلِ. أَمّا هَنْدلي، فَقَدْ غَمَرَهُ اليَأْسُ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ الَّتي كانَ يُحِبُّها كَثيراً، فابْتَعَدَ عَنِ الإيمانِ باللهِ، بَلْ أَخَذَ يَكْفُرُ بِهِ وَبِالعالَمِ بِأَسْرِهِ، وَتَخَلّى عَنْهُ الخَدَمُ جَميعُهم وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ سِوى يوسُفَ، كَما تَوَقَّفَ القَسُّ عَنْ زِيارَةِ القَصْرِ. وَأَمّا إدْغار فَكانَ يَحْضُرُ لِرُؤْيَةِ كاتي.

بَلَغَتْ كاتي آنَذاكَ الخامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها، وَأَصْبَحَتْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكونَ مَلِكَةَ جَمالِ المِنْطَقَةِ، لَكِنَّها تَحَوَّلَتْ إلى فَتاةٍ مُتَعَجْرِفَةٍ عَنيدَةٍ. وَحَرَصَتْ عَلى إخْفاءِ الجانِبِ السَّيِّءِ مِنْ سُلوكِها عَنْ عائِلَةِ لِنتون، وَبِذَلِكَ تَمَكَّنَتْ مِنْ أَنْ تَخْدَعَ والِدَي إدْغار وَجَعَلَتْهُمْ يَهيمونَ حُبّاً بِها.

كانَ هيثْكْليف آنَذاكَ قَدْ بَلَغَ السادِسَةَ عَشْرَةَ، وَقَدْ نَسِيَ طُفولَتَهُ وَما تَعَلَّمَ فيها، وَزالَ كِبْرِياؤُهُ، وَخاصَّةً بَعْدَ مَوْتِ إيرنْشو الكَبيرِ، إذْ شَعَرَ أَنَّهُ أَقَلُّ مِنْ مُسْتَواهُ السّابِقِ. لَقَدْ أَصْبَحَ سُلوكُهُ يوحي

بِالخُشونَةِ، فَباتَ يَسُرُّهُ أَنْ يُثيرَ كَراهِيَةَ كُلِّ مَنْ يُقابِلُهُ. وَذاتَ يَوْمٍ، غادَرَ هَنْدلي البَيْتَ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ، تَوَجَّهَ هيثْكْليف إلى البَيْتِ يَبْحَثُ عَنْ كاتي الَّتي كانَتْ تُرافِقُهُ في رَحَلاتِهِ، وَكُنْتُ آنَذاكَ أُساعِدُها في ارْتِداءِ مَلابِسِها لِأَنَّها كانَتْ تَسْتَعِدُّ لِاسْتِقْبالِ إدْغار وَشَقيقَتِهِ. وَدَخَلَ هيثْكْليف الغُرْفَةَ، وَرَمَقَها بِنَظْرَةِ اسْتِغْرابٍ ثُمَّ سَأَلَها قائِلاً:

- لِماذا تَرْتَدينَ فُسْتانَكِ الحَريرِيَّ يا كاتي؟ هَلْ تَنْتَظِرينَ قُدومَ أَحَدٍ؟

- كَلّا.. وَأَنْتَ، ماذا تَفْعَلُ هُنا؟ أَلَيْسَ مِنَ المَفْروضِ أَنْ تَكونَ في الحَقْلِ الآنَ؟

- إنَّني سَأَبْقى اليَوْمَ إلى جانِبِكِ.

تَرَدَّدَتْ كاتْرين قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَهُ الحَقيقَةَ، وَلَكِنَّها أَكَّدَتْ لَهُ أَنَّ هُطولَ الأَمْطارِ سَيَكونُ مانِعاً لِزِيارَتِهِما لَها. فَقالَ هيثْكْليف:

- اطْلُبي مِنَ المُرَبِّيَةِ أَنْ تُبَلِّغَهُما أَنَّكِ في الخارِجِ عِنْدَ حُضورِهِما، وَلا تَطْرُديني مِنْ أَجْلِ هَذَيْنِ الغَبِيَّيْنِ.

ماذا يُفيدُني البَقاءُ مَعَكَ طَوالَ الوَقْتِ؟ إنَّكَ لَأَشْبَهُ بِطِفْلٍ صَغيرٍ عِنْدَما تُحاوِلُ تَسْلِيَتي، فَأَنا لا أَجِدُ مُتْعَةً مَعَكَ.

- لِمَ تَقولينَ لي هَذا الكَلامَ الآنَ؟ وَكَيْفَ كُنْتِ لا تَنْفُرينَ مِنْ صُحْبَتي فيما مَضى؟

- عَنْ أَيَّةِ صُحْبَةٍ تَتَحَدَّثُ أَنْتَ؟ أَتَدَّعي أَنَّ ما كانَ بَيْنَنا هو صُحْبَةٌ؟

وَهُنا دَخَلَ إدْغار والابْتِسامَةُ تَعْلو ثَغْرَهُ وَقالَ:

- أَرْجو أَنْ يَكونَ حُضوري مُناسِباً في هَذِهِ السَّاعَة؟

- فَأَجابَتْ كاتْرين:

- أَهْلاً بِكَ يا إِدْغار.

ثُمَّ نَظَرتْ إِليَّ وَهيَ تَقولُ: «ماذا تَفْعَلينَ هُنا يا. .».

فَأَجَبْتُها:

- لَقَدْ أَمَرَني سَيِّدي أَنْ أَكونَ مُراقِبَةً لِكُلِّ زيارَةٍ خاصَّةٍ يَقومُ بِها السَّيِّدُ لِنتون إِلى هُنا.

لَمْ يُعْجِبُها كَلامي هَذا، وَهَمَسَتْ بِأُذُني قائِلَةً:

- خُذي كُبَّةَ الصّوفِ مَعَكِ، واخْرُجي مِنْ هُنا فَوْراً.

- إِنَّني آسِفَةٌ يا كاتي، إِذْ إِنَّ سَيِّدي يَكْرَهُ رُؤْيَتي وَأَنا لا أَقومُ بِالعَمَلِ الَّذي أَوْكَلَني بِهِ وَبِحُضورِهِ.

وَهُنا انْتَزَعَتْ كاتي قِطْعَةَ القِماشِ مِنْ يَدي، وَصَفَعَتْني بِقوَّةٍ. وَهَذا ما جَعَلَ الدَّمْعَ يَنْهَمِرُ بِغَزارَةٍ مِنْ عَيْنَيَّ.

صَرَخَ إِدْغار لَدى رُؤْيَتِهِ هَذِهِ التَّصَرُّفاتِ المُخادِعَةِ والعَنيفَةِ، كَما بَدَأَ هارْتيون يَبْكي وَهو يُرَدِّدُ: «عَمَّتي كاتي شِريرَةٌ». وَهَذا ما زادَ مِنْ غَضَبِها، فَأَمْسَكَتْهُ مِنْ كَتِفَيْهِ وَهَزَّتْهُ بِعُنْفٍ. فَأَسْرَعَ إِدْغار وَحاوَلَ انْتِشالَ الطِفْلِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها، وَلَكِنَّهُ تَراجَعَ إِلى الخَلْفِ، عِنْدَما فاجَأَتْهُ بِضَرْبَةٍ شَديدَةٍ وَتَوَجَّهَ إِلى الخارِجِ، وَهو مُصْفَرُّ الوَجْهِ. فَصَرَخَتْ كاتْرين:

- إِلى أَيْنَ أَنْتَ ذاهِبٌ؟

- أَتُريدينَ أَنْ أَبْقى إِلى جانِبِكِ بَعْدَ أَنْ ضَرَبْتِني؟ إِنَّها لَآخِرِ مَرَّةٍ أَحْضُرُ فيها إِلى هُنا.

ظَلَّتْ كاتْرين صامِتَةً، ثُمَّ قالَتْ لَهُ:

- حَسَناً، اذْهَبْ الآنَ إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنَّني سَأَظَلُّ أَبْكي حَتّى أَقَعَ فَريسَةَ المَرَضِ.

تابَعَ إِدْغارَ سَيرَهُ بِضْعَ خَطواتٍ، ثُمَّ اسْتَدارَ مُتَّجِهاً نَحْوَ الغُرْفَةِ، وَكأَنَّ الَّذي حَدَثَ بَيْنَهُما زادَهُما تَقارُباً. وَلَمْ يَكَدْ يَشْعُرُ بِعَوْدَةِ هَنْدِلي، حَتّى أَسْرَعَ يَمْتَطي جَوادَهُ، أَمّا كاتْرين، فَإِنَّها أَسْرَعَتْ إِلى غُرْفَتِها. وَأَنّا بِدَوْري، بادَرْتُ إِلى إِبْعادِ هارْتيون عَنْ عَيْنَيْ أَبيهِ.

دَخَلَ هَنْدلي وَهو يَتَمايَلُ ثَمِلاً؛ وَأَخَذَ الطِّفْلَ مِنْ يَدَيَّ وَصَرَخَ قائِلاً:

- الوَيْلُ لَكُم أَيُّها الجُبَناءُ. . لَقَدْ اتَّفَقْتُم عَلى قَتْلِهِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

أَخَذَ الطِّفْلُ يَصْرُخُ، وَهو يُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنْ يَدَيْ والِدِهِ، غَيْرَ أَنَّ هَنْدلي، حَمَلَهُ وَأَخَذَ يَصْعَدُ إِلى الطّابِقِ العُلْويِّ. وَهُنا لَفَتَ سَمْعَهُ حَرَكَةٌ في الطّابِقِ السُّفْليِّ، فانْحَنى لِيَرى ما هُناكَ، وَإِذا بِالطِّفْلِ يَقْفِزُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَهْوِيَ إِلى الطّابِقِ السُّفْلِيِّ. وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذّاتِ وَصَلَ هيثْكْليف، وَبِحَرَكَةٍ لا شُعورِيَّةٍ تَلَقّاهُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ، وَلَكِنَّهُ دُهِشَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَحْقيقَ أَمَلِهِ بِالانْتِقامِ مِنْ هَنْدلي. لِماذا أَنْقَذَ الطِّفْلَ!!

- وَنَزَلَ هِنْدلي الدَّرَجَ . . عِنْدَئِذٍ صَرَخْتُ بِهِ قائِلَةً :

- أَلا تَخْجَلُ مِنْ نَفْسِكَ يا هِنْدلي؟ الطِّفْلُ!

حَمَلْتُ الطِّفْلَ وَرُحْتُ أُلاعِبُهُ لِأُخَفِّفَ مِنْ خَوْفِهِ. أَمّا هيثكْليف، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ عادَ إِلى الإِسْطَبْلِ، لَكِنَّني تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ وَجَلَسَ عَلى المَقْعَدِ المَوْجودِ في الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ.

وَأَطَلَّتْ كاتي مِنْ خَلْفِ البابِ وَهَمَسَتْ إِلَيَّ قائِلَةً :

- أَأَنْتِ بِمُفْرَدِكِ هُنا؟

- كَلّا يا كاتي، إِنَّ الطِّفْلَ مَعي . . أَمّا هيثكْليف فَهو يَقومُ بِعَمَلِهِ في الإِسْطَبْلِ.

فَصَرَخَتْ قائِلَةً :

- آه . . كَمْ أَنا تَعيسَةٌ!

وَأَخَذَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها، فَقُلْتُ لَها :

- أَنْتِ لا تَحْمَدينَ الله عَلى شَيْءٍ طالَما أَنَّهُ لَيْسَ هُنالِكَ شَيْءٌ يُرْضيكِ. تَرى ما هو الشُّعورُ المُفاجِئُ الَّذي أَصابَكِ؟

وَرَكَعَتْ كاتي وَقالَتْ :

- هَلْ تَحْفَظينَ سِرّي إِنْ أَخْبَرْتُكِ عَنْهُ؟ اسْمَعي : لَقَدْ طَلَبَ مِنّي إِدْغارَ الزَّواجَ وَوافَقْتُ عَلى ذَلِكَ فَهَلْ ارْتَكَبْتُ خَطَأً بِموافَقَتي؟

- تَسْأَلينَني يا كاتي، بَعْدَ أَنْ وافَقْتِ عَلى الزَّواجِ؟

- إِنَّهُ شابٌّ جَميلٌ، مَرِحٌ، وَثَرِيٌّ. إِنَّني أُحِبُّهُ.

- إِنْ أَحْبَبْتِهِ لِهَذِهِ الصِّفاتِ، فَهُنالِكَ كَثيرٌ مِنَ الشُّبانِ الَّذينَ

يَفوقونَهُ جَمالاً، وَمَرَحاً، وَثَرْوَةً، فَما الَّذي يَمْنَعُكِ مِنْ حُبِّكِ لَهُمْ؟

- كَلامُكِ صَحيحٌ، وَلَكِنَّني أُفَضِّلُ إِدْغار، لِأَنَّهُ سَيَجْعَلُني مِنْ أَعْظَمِ سَيِّداتِ هَذِهِ المِنْطَقَةِ.

- إِذَنْ، سَيَكونُ لَكِ ما تَرْغَبينَهُ، فَأَيْنَ تَعاسَتُكِ؟ الجَميعُ راضونَ عَنْ زَواجِكُما، وَتَكونينَ قَدْ تَخَلَّصْتِ مِنَ الفَوْضى، وانْتَقَلْتِ إِلى بَيْتٍ ثَرِيٍّ، فَما هي صُعوبَتُكِ يا كاتي؟

وَهُنا، ارْتَسَمَ[١] الحُزْنُ عَلى وَجْهِها، ثُمَّ واصَلَتْ حَديثَها قائِلَةً :

- إِنَّني بِالحَقيقَةِ أُحِبُّ هيثكْليف، وَلَكِنَّ احْتِقارَ أَخي لَهُ هوَ الَّذي يَجْعَلُني لا أُفَكِّرُ بِالزَّواجِ مِنْهُ، فَأَنا مُتَأَكِّدَةٌ أَنَّ زَواجي مِنْ هيثكْليف سَيَحُطُّ مِنْ كَرامَتي.

وَقَبْلَ أَنْ تَنْتَهي كاتي مِنْ حَديثِها، سَمِعْتُ وَقْعَ خَطواتٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هيثكْليف قَدْ سَمِعَ كَلامَها، وَفَضَّلَ أَنْ يَنْصَرِفَ عَلى أَنْ يَسْمَعَ باقي الحَديثِ، فَطَلَبْتُ مِنْ كاتي أَنْ تَصْمُتَ. فَسَأَلَتْني وَهيَ تَنْظُرُ حَوْلَها بِحَذَرٍ : لِماذا؟ فَأَجَبْتُها :

- إِنَّ يوسُفَ هُنا، وَأَظُنُّ أَنَّ هيثكْليف لَيْسَ بَعيداً عَنّا، قالَتْ :

- أَحْضِري الطَّعامَ، إِنَّني سَأَتَناوَلُ العَشاءَ مَعَكِ، وَأُفَضِّلُ أَنْ لا يَعْرِفَ هيثكْليف شَيْئاً عَنْ حَقيقَةِ شُعوري نَحْوَهُ. ذَلِكَ أَفْضَلُ.

---

(١) ارتسم: ظهر واضحاً جلياً.

- لَكِنَّ زَواجَكِ مِنْ إِدْغار، سَيَجْعَلُ هيثْكْليف يَخْسَرُ أَحَبَّ صَديقٍ لَهُ. وَبِالتّالي سَيَخْسَرُ كُلَّ شَيْءٍ. وَأُصارِحُكِ بِأَنَّهُ إِنْ اخْتارَكِ، فَإِنَّهُ سَيَكونُ أَتْعَسَ مَخْلوقٍ عَلى الأَرْضِ، وَلَكِنْ هَلْ بِاسْتِطاعَتِكِ مُفارَقَتُهُ يا كاتي؟

- إِنّي واثِقَةٌ بِأَنَّ زَواجي مِنْ هيثْكْليف سَيَجْعَلُنا فَقيرانِ. أَمّا إِذا تَزَوَّجْتُ إِدْغار، عِنْدَئِذٍ أَسْتَطيعُ مُساعَدَةَ هيثْكْليف، أُبْعِدُهُ عَنْ سَيْطَرَةِ أَخي وَأُرْغِمُ إِدْغارَ عَلى نَبْذِ كَراهِيَتِهِ لَهُ.

- إِنَّكِ يا كاتي ما زِلْتِ تُظْهِرينَ لي بِحَديثِكِ أَنَّ المالَ هوَ سَبَبُ زَواجُكِ مِنْ إِدْغار.

- لا، أَبداً. إِنَّ عَذابي في هَذِهِ الدُّنْيا، هو شَقاءُ هيثْكْليف. إِنَّهُ أَمَلي وَمُنْيَةُ قَلْبي، وَهو سَبَبُ وُجودي في هَذِهِ الحَياةِ. وَإِنْ فَقَدْتُهُ، أَكونُ قَدْ فَقَدْتُ روحي. إِنَّ تَعَلُّقي بِإِدْغار، كَتَعَلُّقِ أَوْراقِ الشَّجَرِ بِالأَغْصانِ وَلا تَلْبَثُ أَنْ تَسْقُطَ هَذِهِ الأَوْراقُ عِنْدَ هُبوبِ أَدْنى عاصِفَةٍ. أَمّا حُبّي لِهيثْكْليف، فَهوَ خالِدٌ لا تُؤَثِّرُ فيهِ العَواصِفُ وَلا تَمْحوهُ الأَقْدارُ مَهْما كانَتْ ظالِمَةً.

مَرَّتِ السّاعاتُ، وَلَمْ يَعُدْ هيثْكليف، فاسْتَبَدَّ قَلَقُها، وازْدادَ عِنْدَما أَكَّدْتُ لَها أَنَّهُ سَمِعَ مُعْظَمَ حَديثِها فَقالَتْ:

- تُرى هَلْ أَزْعَجَهُ حَديثي؟ كَمْ أَتَمنى لَوْ يَأْتي الآنَ..

كانَ اللَّيْلُ مُظْلِماً والعَواصِفُ الهَوْجاءُ تَهُبُّ بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ فَتَقْتَلِعُ الأَشْجارَ مِنْ جُذورِها، وَآنَذاكَ كانَتْ كاتْرين واقِفَةً عِنْدَ البَوابَةِ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ هيثْكْليف، وَقَدْ تَبَلَّلَتْ مَلابِسُها مِنْ دونِ أَنْ تُبالي.

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، جَلَسَتْ كاتي قُرْبَ المِدْفَأَةِ وَأَسْنانُها تَصْطَكُّ. وَأَفْزَعَني مَنْظَرُها فَأَسْرَعْتُ وَطَلَبْتُ مِنْ يوسُفَ أَنْ يَسْتَدْعيَ الطَّبيبَ فَوْراً.

أَعْلَنَ الطَّبيبُ، أَنَّها مُصابَةٌ بالحُمّى وَأَنَّ حَياتَها مُعَرَّضَةٌ لِلْخَطَرِ، وَحَصَرَ طَعامَها عَلى السَّوائِلِ، وَأَمَرَني بِمُراقَبَتِها خَوْفاً مِنْ أَنْ تَرْمِيَ نَفْسَها مِنَ النّافِذَةِ.

قامَتْ السَّيِّدَةُ لِنْتونْ بِزِيارَتِها عِدَّةَ مَرّاتٍ وَأَخَذَتْها مَعَها إِلى «تْراشْ كْروس» عِنْدَما أَشْرَفَتْ عَلى الشِّفاءِ. وَلِسوءِ الحَظِّ، انْتَقَلَتِ العَدْوى لِعائِلَةِ لِنْتونْ وَقَضَتْ عَلى السَّيِّدَةِ وَزَوْجِها. وَعادَتْ كاتْرين إِلى قَصْرِها حامِلَةً مَعَها كِبْرِياءَها، وَأَمْسَتْ سَريعَةَ الغَضَبِ.

اخْتَفى هيثْكْليف.. وَأَلْقَيْتُ اللَّوْمَ عَلى كاتي لِأَنَّها كانَتْ سَبَبَ اخْتِفائِهِ، وَكانَ لِكَلامي أَثَرٌ كَبيرٌ في نَفْسِها، وَلَمْ تَعُدْ تُحَدِّثُني كَما كانَتْ تَفْعَلُ، واعْتَبَرَتْ نَفْسَها سَيِّدَةً وَرَبَّةَ البَيْتِ، خاصَّةً بَعْدَ أَنْ حَذَّرَنا الطَّبيبُ مِنْ مُعارَضَتِها. كَذَلِكَ شَقيقُها، فَقَدْ امْتَلَكَهُ الخَوْفُ مِنَ النَّوْباتِ العَصَبِيَّةِ الَّتي كانَتْ تُصابُ بِها بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ، فَسَمَحَ لَها بِالتَّصَرُّفِ حَسَبَ رَغْبَتِها وَلَمْ يَعُدْ يَتَدَخَّلُ بِشُؤونِها إِطْلاقاً.

بَعْدَ مُرورِ ثَلاثِ سَنَواتٍ، عَلى وَفاةِ المِسْتَر لِنْتونْ العَجوزِ، تَزَوَّجَ إِدْغار وَكاتْرين، واعْتَبَرا نَفْسَيْهِما أَسْعَدَ زَوْجَيْنِ عَلى الأَرْضِ. وَقَدْ نَزَلْتُ عِنْدَ رَغْبَتِهِما، وَتَرَكْتُ المُرْتَفَعاتِ، وَرافَقْتُ كاتْرينَ إِلى بَيْتِها الجَديدِ، وَكانَ هارْتيونْ قَدْ بَلَغَ الخامِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ.

تَغَيَّرَتْ كاتْرين كَثيراً في بَيْتِ زَوْجِها، وَأَحاطَتْ شَقيقَتَهُ

إيزابيلّا بِالوِدِّ والحَنانِ، وَكانَ إِدْغار بِدَوْرِهِ يَتَفادى كُلَّ عَمَلٍ لا يَروقُ زَوْجَتَهُ، وَهَذا ما جَعَلَني أَغْفَلُ عَنْ هَفَواتِها.

كانَتْ كاثْرين تَمُرُّ بِأَيّام كَئيبَةٍ بَيْنَ حينٍ وَآخَر.

وَكانَ زَوْجُها يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَذا الأَمْرِ صِلَةً بِمَرَضِها السّابِقِ، أَمّا أَنا، فَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّ الحُبَّ الَّذي عاشَ مَعَهُما في الأَيّامِ الأولى مِنْ زَواجِهِما بَدَأَ يَتَلاشى وَيَضْمَحِلُّ. وَذاتَ لَيْلَةٍ، كُنْتُ عائِدَةً مِنَ الحَديقَةِ وَبِيَدي سَلَّةُ تُفّاحٍ، وَإِذْ بِصَوْتٍ يَقولُ:

ـ . . . هَلْ هَذِهِ أَنْتِ؟

كانَ الصَّوْتُ عَميقاً، وَلَهْجَتُهُ غَريبَةً، لَكِنَّهُ مَأْلوفٌ لَدَيَّ. تَقَدَّمَ رَجُلٌ طَويلُ القامَةِ، يَرْتَدي مَلابِسَ سَوْداءَ، شاحِبَ الوَجْهِ، طَويلَ الشَّعْرِ، عَرَفْتُهُ مِنْ عَيْنَيْهِ العَميقَتَيْنِ فَصَرَخْتُ:

ـ أَأَنْتَ هيثْكْليف؟ هَلْ عُدْتَ؟

ـ نَعَمْ، أَنا هيثْكْليف. أَيْنَ كاتي؟ تَكَلَّمي. . . أُريدُ مُحادَثَتَها. أَرْجوكِ، اذْهَبي وَقولي لَها هُنالِكَ شَخْصٌ مِنْ قَرْيَةِ جيمِرْتون يَرْغَبُ في مُقابَلَتِكِ.

وَهَتَفْتُ قائِلَةً:

ـ وَكَيْفَ سَتَتَلَقّى كاتي نَبَأَ عَوْدَتِكَ؟ كَمْ تَغَيَّرْتَ؟ هَلْ كُنْتَ جُنْدِيّاً؟

ـ اذْهَبي وَبَلِّغيها رِسالَتي، فَأَنا أَعيشُ في جَحيم. دَخَلْتُ غُرْفَةَ الجُلوسِ حَيْثُ كانَ السَّيِّدُ إِدْغار وَكاتي جالِسَيْنِ في جَوٍّ مِنَ الهُدوءِ. وَقَدْ تَرَدَّدْتُ في إِبْلاغِها الرِّسالَةَ لَكِنَّني تَمالَكْتُ نَفْسي وَقُلْتُ:

ـ هُنالِكَ شَخْصٌ مِنْ جيمِرْتون يَرْغَبُ في مُحادَثَتِكِ.

ـ أَغْلِقي سَتائِرَ النَّوافِذِ، وَأَحْضِري الشّايَ، إِنَّني سَأَعودُ فَوْراً.

وَهُنا سَأَلَني إِدْغار مُسْتَفْسِراً:

ـ مَنْ هو ذاكَ الشَّخْصُ؟

ـ إِنَّهُ شَخْصٌ لَمْ تَتَوَقَّعْ سَيِّدَتي حُضورَهُ. إِنَّهُ هيثْكْليف يا سَيِّدي.

ـ مَنْ! ذاكَ الغَجَرِيُّ الحَرّاثُ؟

ـ اصْمُتْ يا سَيِّدي، وَلا تَتَفَوَّهْ بِهَذا الاسْمِ، إِنَّ قَلْبَها تَحَطَّمَ عِنْدَ رِجْلَيْهِ.

وَبَعْدَ لَحَظاتٍ عادَتْ كاثْرين وَهِيَ تَكادُ تَطيرُ مِنَ الفَرَحِ، وَطَوَّقَتْ عُنُقَ زَوْجِها بِذِراعَيْها وَصَرَخَتْ قائِلَةً:

ـ إِنَّهُ هيثْكْليف. . . لَقَدْ عادَ هيثْكْليف.

ـ صَرَخَ زَوْجُها بِغَضَبٍ:

ـ حَسَناً، وَلَكِنْ لِمَ كُلُّ هَذا الابْتِهاجِ؟

وَهُنا أَجابَتْهُ كاثْرين:

ـ أَنا أَعْرِفُ كَراهِيَتَكَ لَهُ، وَأَرْجوكَ أَنْ تَكونَ صَديقاً حَميماً لَهُ، أَتَسْمَحُ لي أَنْ أَدْعوهُ لِلْدُّخولِ؟ فَأَجابَها إِدْغار:

ـ إِلى هُنا؟ أَلا يَكونُ المَطْبَخُ مَكاناً مُلائِماً لَهُ؟

نَظَرَتْ إِلَيْهِ كاثْرين بِغَضَبٍ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ وَقالَتْ:

ـ إِنَّني لا أَسْتَطيعُ الجُلوسَ في المَطْبَخِ.

وَهُنا هَمَّتْ كاتي بِالخُروجِ لِتَدْعوهُ، وَلَكِنَّ إِدْغار اسْتَوْقَفَها وَنَظَرَ مُوَجِّهاً حَديثَهُ إِلَيَّ:

- اذْهَبي أَنْتِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّياقَةِ أَنْ يُشاهِدَ باقي الخَدَمِ تَرْحيبَ سَيِّدَتِكِ بِخادِمٍ كَأَخٍ لَها.

تَبِعَني هيثْكْليف. وَما أَنْ رَأَتْهُ كاتي حَتّى قَفَزَتْ وَطَلَبَتْ مِنْهُما أَنْ يَتَصافَحا.

إِنَّ التَّغْييرَ الَّذي طَرَأَ عَلى هيثْكْليف مُثيرٌ جِدّاً. فَقَدْ أَصْبَحَ طَويلَ القامَةِ، رَشيقَ المَظْهَرِ، وَقَدْ اخْتَفَتْ نَظَراتُ الخِزْيِ وَحَلَّتْ مَكانَها نَظَراتُ الذَّكاءِ والفِطْنَةِ والانْتِصارِ، وَبَدا إِدْغارُ كالقَزَمِ إِلى جانِبِهِ، كَما أَنَّ قَوامَهُ وَقَسَماتِهِ كانَتْ تَدُلُّ عَلى العَزيمَةِ والوَقارِ.. وَهَذا ما جَعَلَ إِدْغار يَقِفُ حائِراً. ثُمَّ قالَ:

- إِنَّ السَّيِّدَةَ كاتي تَرْغَبُ في اسْتِقْبالِكَ هُنا وَيَسُرُّني أَنْ أُلَبّي طَلَبَها وَأُدْخِلَ السُّرورَ إِلى قَلْبِها.

- يَسُرُّني تَلْبِيَةُ دَعْوَتِكَ هَذِهِ، وَسَأَبْقى هُنا لِمُدَّةِ ساعَةٍ أَوْ ساعَتَيْنِ.

راحَتْ كاتْرين تُحَدِّقُ بِهِ طَوالَ الوَقْتِ. أَمّا هو فَكانَ يَرْمُقُها بِنَظَراتٍ يُعَبِّرُ بِها عَنْ شَوْقِهِ، وَسَعادَتِهِ لِوُجودِهِ بِقُرْبِها. وَهُنا تَنَهَّدَتْ كاتْرين وَهِيَ تَقولُ:

- أَنا لا أُصَدِّقُ عَيْني الَّتي تَراكَ، إِنَّكَ قاسٍ يا هيثْكْليف؛ وَكَيْفَ يُطاوِعُكَ ضَميرُكَ أَنْ تَبْقى بَعيداً عَنّي ثَلاثَ سَنَواتٍ، مِن دونِ أَنْ تُرْسِلَ لي كَلِمَةً واحِدَةً!! فَأَجابَها هيثْكْليف:

- إِنَّ ذِكْراكِ ما فارَقَتْ مُخَيِّلَتي أَبَداً. عَلِمْتُ بِزَواجِكِ مِنْ إِدْغار قَبْلَ أَيّامٍ قَليلَةٍ، وَعِنْدَما حَضَرْتُ إِلى هُنا، كُنْتُ أَنْوي إِلْقاءَ نَظْرَةٍ عَلَيْكِ ثُمَّ أَذْهَبُ وَأَنْتَقِمُ مِنْ هِنْدلي، غَيْرَ أَنَّ اسْتِقْبالَكِ لي، وَضَعَ حَدّاً لِأَفْكاري. إِنَّني كافَحْتُ كِفاحاً مُميتاً مِنْ أَجْلِكِ يا كاتي.

وَهُنا قاطَعَهُ إِدْغار بِصَوْتٍ مَخْنوقٍ، وَطَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تَذْهَبَ إِلى المائِدَةِ، لَمْ يَسْتَمِرَّ جُلوسُهُمْ سِوى لِدَقائِقَ. ثُمَّ وَدَّعَهُمْ هيثْكْليف، فَتَبِعْتُهُ وَأَنا أَسْأَلُهُ إِنْ كانَ سَيَذْهَبُ إِلى جيمِرْتون، فَأَجابَني:

- إِنَّني ذاهِبٌ إِلى مُرْتَفَعاتِ وذِرينغ. لَقَدْ ذَهَبْتُ صَباحاً لِأَراكِ يا سَيِّدَةَ دين وَلَكِنَّني الْتَقَيْتُ بِأَشْخاصٍ يَلْعَبونَ بِالوَرَقِ. وَعِنْدَما لاحَظَ هِنْدلي أَنَّني أَمْلِكُ مالاً كَثيراً دَعاني لِزِيارَتِهِ. إِنَّهُ بِالحَقيقَةِ رَجُلٌ جَشِعٌ[1]، وَأُفَضِّلُ أَنْ أَجِدَ مَسْكَناً قَريباً مِنْ كاتي.

قُلْتُ في نَفْسي «مِسْتَر هِنْدلي يَدْعوهُ لِزِيارَتِهِ!.. أَلَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ لِهيثْكْليف أَنْ يَبْقى بَعيداً عَنْهُ».

مُنْذُ ذَلِكَ الحينِ، أَخَذَ هيثْكْليف يَتَرَدَّدُ إِلى المَزْرَعَةِ، وَقَدْ زالَ قَلَقُ إِدْغار مِنْ هَذِهِ الزِّياراتِ الَّتي كانَتْ فيما بَعْدُ مَصْدَرَ مَتاعِبَ جَديدَةٍ لَمْ نَتَوَقَّعْها.. ذَلِكَ بِأَنَّ إيزابيلا قَدِ امْتَلَكَ قَلْبَها حُبٌّ جارِفٌ مُفاجِئٌ نَحْوَ هيثْكْليف، وَكانَتْ آنَذاكَ قَدْ بَلَغَتِ الثّامِنَةَ

---

(١) جشع: لا يقنع بالقليل ـ طمّاع.

عَشرَةَ مِنْ عُمرِها، فهيَ جميلةُ الوَجْهِ حادَّةُ الذَّكاءِ، لَكِنَّها عَصبيَّةُ المَزاجِ. أَمّا إِدْغار فقدْ أَقْلَقَهُ هَذا الوَضْعُ، وَخاصَّةً أَنَّ زَواجَ أُخْتِهِ مِنْ شَخْصٍ مَجْهولِ الأَصْلِ يُلْحِقُ العارَ بِهِ وَبِعائِلَتِهِ.

مَرَّتِ الأَيّامُ، وَصِحَّةُ إيزابيلّا تَتَدَهْوَرُ شَيْئاً فَشَيْئاً، وَبَدَتْ شاحِبَةَ الوَجْهِ، ذابِلَةَ العَيْنَيْنِ. عِنْدَئِذٍ قَرَّرْنا اسْتِدْعاءَ الطَّبيبِ، وَهُنا صَرَخَتْ إيزابيلّا تَشْكو مِنْ سوءِ مُعامَلَةِ كاتْرين لَها، وَأَنَّ هَذِهِ المُعامَلَةَ هِيَ سَبَبُ شَقائِها.

وَأَجابَتْ كاتْرين بِاسْتِغْرابٍ عَظيمٍ:

- أَمُعامَلَتي لَكِ خَشِنَةٌ يا إيزابيلّا؟ وَمَتى عامَلْتُكِ بِخُشونَةٍ؟ تَكَلَّمي.

- البارِحَةَ، عِنْدَما كُنّا نَسيرُ مَعَ هيثْكْليف، طَلَبْتِ مِنّي أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْكُما، رَغْمَ أَنّي كُنْتُ أَوَدُّ السَّيْرَ وَالتَّحَدُّثَ مَعَهُ! حَقّاً إِنَّكِ امْرَأَةٌ أَنانيَّةٌ، وَلَكِنَّ كَوْني عَلى ثِقَةٍ تامَّةٍ أَنّي أُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِمّا تُحِبّينَهُ أَنْتِ، وَلا بُدَّ أَنْ يُبادِلَني الحُبَّ نَفْسَهُ. فَأَجابَتْها كاتْرين:

- إِنَّ جَهْلَكِ لِشَخْصيَّةِ هيثْكْليف، يَجْعَلُكِ تَحْلُمينَ وَكَأَنَّهُ جَوْهَرَةٌ فَريدَةٌ مِنْ نَوْعِها. إِنَّهُ رَجُلٌ مُفْتَرِسٌ، لا رَحْمَةَ في قَلْبِهِ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ في حُبِّ أَيِّ شَخْصٍ يَنْتَمي إِلى عائِلَةِ لِنْتونْ، وَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَيَكونُ رَغْبَةً في السَّيْطَرَةِ عَلى حِصَّتِكِ مِنْ إِرْثِ العائِلَةِ. أَبْعِدي هٰذا عَنْ تَفْكيرِكِ.

في اليَوْمِ التّالي، اضْطُرَّ السَّيِّدُ إِدْغارِ أَنْ يَذْهَبَ إِلى إِحْدى المُدُنِ القَريبَةِ، لِيُنْهِيَ بَعْضَ أَعْمالِهِ. وَعَلِمَ هيثْكْليف بِذَلِكَ

فَحَضَرَ، وَكانَتْ كاتْرين وَإيزابيلا جالِسَتَيْنِ في الغُرْفَةِ تُطالِعانِ وَالصَّمْتُ مُخَيِّمٌ عَلَيْهِما. وَما إِنْ أَطَلَّ بِوَجْهِهِ مِنَ البابِ، حَتّى هَتَفَتْ كاتْرين:

- ادْخُلْ يا هيثْكْليف. إِنَّكَ الشَّخْصُ الوَحيدُ الَّذي نَرْغَبُ صَداقَتَهُ، وَيُسْعِدُني أَنْ أُقَدِّمَ لَكَ مَنْ يُحِبُّكَ أَكْثَرَ مِنّي. إِنَّها إيزابيلّا، شَقيقَةُ زَوْجي.

لَمْ يُبْدِ هيثْكْليف أَيَّ اهْتِمامٍ، أَمّا إيزابيلّا فَقَدْ هَمَسَتْ راجِيَةً كاتْرين أَنْ تَتْرُكَها، وَلَكِنْ كاتي صَرَخَتْ قائِلَةً:

- أَنا لا أَسْمَحُ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْعَتَني بِالأَنانيَّةِ.

أَخَذَ وَجْهُ إيزابيلّا يَتَبَدَّلُ بَيْنَ الشُّحوبِ وَالاحْمِرارِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ كاتْرين بَقيَتْ مُتَمَسِّكَةً بِها. وَعِنْدَئِذٍ سَأَلَها هيثْكْليف:

- لِماذا تُعَذِّبينَ هَذِهِ المَرْأَةِ؟ ثُمَّ أَرْدَفَ قائِلاً:

- أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الوَريثَةَ الوَحيدَةَ لِشَقيقِها؟

فَأَجابَتْهُ كاتْرين بِاسْتِهْزاءٍ:

- كَلّا... يَبْدو أَنَّكَ مُغْرَمٌ بِالتَّفْكيرِ في مُمْتَلَكاتِ النّاسِ...

كُنْتُ أَنْزَعِجُ كَثيراً بِزِياراتِ هيثْكْليف لَنا. أَمّا إِقامَتُهُ في المُرْتَفَعاتِ، فَكانَتْ لا تَزالُ لُغْزاً، وَكانَ فُضولي يَدْفَعُني لِلذَّهابِ إِلَيْها، وَلَكِنَّني أَعودُ فَأُحْجِمُ عَنْ هَذِهِ الزِّيارَةِ.

في أَحَدِ الأَيّامِ، كُنْتُ في طَريقي إِلى جيمِرْتونْ، وَمَرَرْتُ بِبُقْعَةِ أَرْضٍ، كانَتِ المُفَضَّلَةُ لَدَيَّ. وَهُناكَ رَأَيْتُ صَبيّاً صَغيراً يَنْظُرُ

إِلَيَّ، ثُمَّ اخْتفى. تابَعْتُ طَريقي، وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلى المُرْتَفعاتِ رَأَيْتُهُ ثانيَةً وَعَرَفْتُ عِنْدَئِذٍ أَنَّهُ هاريتونِ الصَّغيرِ الَّذي تَرَكْتُهُ مُنْذُ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ، فَصَرَخْتُ قائِلَةً:

ـ حَماكَ اللهُ يا حَبيبي، تَعالَ إِلَيَّ، فَأَنا مُرَبّيَتُكَ نيلّلي، هَلْ نَسيتَني؟

انْحَنى هاريتون، والْتَقَطَ حَجَراً، وَرَماني بِهِ، وَراحَ يَشْتُمُني. كانَتْ ضَرْبَتُهُ قَوِيَّةً، وَلَكِنّي أَخَذْتُ حَبَّةَ بُرْتُقالٍ، وَقَدَّمْتُها لَهُ. وَتَرَدَّدَ قَليلاً ثُمَّ خَطَفَها، وَعادَ يَشْتُمُني، فَقَدَّمْتُ لَهُ بُرْتُقالَةً ثانيَةً ثُمَّ قُلْتُ لَهُ:

ـ اقْتَرِبْ يا هاريتونْ.. قُلْ لي مَنْ يَسْهَرُ عَلى تَرْبِيَتِكَ؟

ـ والِدي.

ـ ماذا يُعَلِّمُكَ؟

ـ لا شَيْءَ، إِنْ والِدي يَكْرَهُني، وَيَطْلُبُ مِنّي أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْ طَريقِهِ..

ـ وَمَنْ يُعَلِّمُكَ الشَّتْمَ؟

ـ هيثْكْليف.. إِنّي أُحِبُّ هيثْكْليف، لِأَنَّهُ يَشْتُمُ والِدي وَلِأَنَّهُ يَقولُ لي دائِماً، «افْعَلْ ما تُريدُ يا هاريتونْ، فَأَنْتَ حُرُّ التَّصَرُّفِ».

عِنْدَئِذٍ، قَبَّلْتُهُ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَذْهَبَ لِيُبَلِّغَ والِدَهُ أَنَّ امْرَأَةً اسْمُها نيلّلي دين تَنْتَظِرُهُ في الخارِجِ، وَقَدْ أَخَذْتُ أَجْري مُسْرِعَةً، عِنْدَما رَأَيْتُ هيثْكْليف قادِماً بَدَلاً مِنْ هِنْدلي.

❂ ❂ ❂

بَعْدَ أَيّامٍ، حَضَرَ هيثْكْليف كَعادَتِهِ، وَكانَتْ إيزابيلّا آنَذاكَ في الفَناءِ تُطْعِمُ طُيورَها. فَتَقَدَّمَ مِنْها ثُمَّ أَحاطَها بِذِراعَيْهِ. وَهُنا صَرَخَتْ قائِلَةً:

ـ يا لَلْعارِ... يا لَلْعارِ!

ـ سَأَلَتْني كاتْرين:

ـ مَنْ هُناكَ يا نيلّلي؟

ـ صَديقُكِ التّافِهُ يا كاتي.. إِنَّني أُسائِلُ نَفْسي كَيْفَ قالَ: إِنَّهُ يَكْرَهُها وَهو الآنَ يُحاوِلُ مُغازَلَتَها؟

واقْتَرَبَتْ كاتي وَشاهَدَتِ المَعْرَكَةَ بَيْنَ هيثْكْليف الَّذي يُحاوِلُ ضَمَّها إِلَيْهِ، وَإيزابيلّا الَّتي تُحاوِلُ الفِرارَ مِنْ بَيْنِ ذِراعَيْهِ. وَبَعْدَ لَحَظاتٍ فَتَحَ هيثْكْليف البابَ فاسْتَوْقَفَتْهُ كاتْرين قائِلَةً:

ـ ماذا تَبْغي يا هيثْكْليف مِنْ عَمَلِكَ هَذا؟ أَلَمْ أَطْلُبْ مِنْكَ أَنْ تَتْرُكَ إيزابيلّا وَشَأْنَها؟

ـ أَنا لَسْتُ زَوْجَكِ لِتَغاري عَلَيَّ، وَأَوَدُّ أَنْ أَقولَ لَكِ شَيْئاً، «تَذَكَّري مُعامَلَتَكِ لي في الأَيّامِ الأَخيرَةِ قَبْلَ زَواجِكِ... أَلَمْ تَكُنْ مُخْجِلَةً؟ وَهَلْ تَعْتَقِدينَ أَنَّني أَتْرُكُها تَذْهَبُ أَدْراجَ الرِّياحِ مِن دونِ أَنْ آخُذَ بِثَأْري وَأَنْتَقِمُ؟» إِنَّني أَشْكُرُكِ لِأَنَّكِ أَطْلَعْتِني عَلى سِرِّ إيزابيلّا، وَسَوْفَ أَسْتَغِلُّهُ إِلى أَبْعَدِ حَدٍّ... دَعيني أَنْعَمُ وَلَوْ لِلَحَظاتٍ قَليلَةٍ. لَقَدْ هَدَمْتِ حَياتي، فَهَلْ تَنْتَظِرينَ أَنْ أَكونَ قِدّيساً؟

ـ أَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّكَ تُريدُ أَنْ تُدْخِلَ البُؤْسَ إِلى قُلوبِ الَّذينَ

مِن حَوْلِكَ، وَخاصَّةً بَعْدَ أَنْ عادَ إِدْغار لِمَزاجِهِ الطَّبيعيِّ، وَبَدَأْنا نَشْعُرُ بِالأَرْتياحِ والأَمْنِ. بِرَبِّكَ، دَعْكَ مِنْ هَذِهِ الأَفْكارِ السَّوْداءِ، إِنَّ حَديثَكَ مَلأَ قَلْبي حُزْناً، وَأَعْصابي تَكادُ تَنْهارُ.

في هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَصَلَ إِدْغار وَراحَ يَبْحَثُ عَنْ زَوْجَتِهِ ثُمَّ بادَرَني قائِلاً: «أَيْنَ سَيِّدَتُكِ؟» فَأَعْلَمْتُهُ أَنَّها في المَطْبَخِ، وَرُحْتُ أَشْرَحُ لَهُ ما حَصَلَ بَيْنَها وَبَيْنَ هيثْكْليف، فَقالَ:

ـ إِنَّني لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ هَذا الوَضْعَ، اسْتَدْعي لي اثْنَيْنِ مِنْ رِجالي، واتْبَعيني إِلى المَطْبَخِ.

وَهُنا صَرَخَ إِدْغارُ مُوَجِّهاً حَديثَهُ إِلى هيثْكْليف:

ـ لَقَدْ صَبَرْتُ عَلَيْكَ كَثيراً يا هيثْكْليف، وَسَمَحْتُ لَكَ بِدُخولِ بَيْتي، والآنَ أَطْلُبُ مِنْكَ مُغادَرَتَهُ، وَعَدَمَ العَوْدَةِ إِلَيْهِ ثانِيَةً...

نَظَرَ هيثْكْليف إِلَيْهِ بِسُخْرِيَةٍ، وَهوَ يَقولُ:

ـ إِنَّ حَمَلَكِ هَذا يُهَدِّدُني يا كاتي...

عِنْدَئِذٍ أَوْمَأَ لي سَيِّدي لِأُحْضِرَ الرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنَّ كاتي، جَذَبَتْني إِلى الخَلْفِ، وَأَغْلَقَتِ البابَ، وَقالَتْ لِزَوْجِها:

ـ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْكَ الشَّجاعَةُ لِمُهاجَمَتِهِ، فاعْتَذِرْ عَنْ ذَلِكَ.

وَهُنا أَلَمَّتْ بِإِدْغارَ نَوْبَةُ غَضَبٍ، فَأَخَذَ يَرْتَجِفُ، واسوَدَّ وَجْهُهُ وَأَصْبَحَ كالأَمْواتِ. عِنْدَئِذٍ قالَ هيثْكْليف:

ـ اسْتَمْتِعي يا كاتي بِمَنْظَرِ هَذا الجَبانِ الَّذي فَضَّلْتِ عَلَيَّ.

ثُمَّ رَكَلَ الكُرْسِيَّ الَّذي كانَ إِدْغارُ مُتَّكِئاً عَلَيْهِ. وَهُنا هَجَمَ

إِدْغارُ عَلَيْهِ وَلَطَمَهُ لَطْمَةً قَوِيَّةً. فَصاحَتْ كاتْرين:

ـ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَنْصَرِفَ الآنَ يا هيثْكْليف؛ لِأَنَّ إِدْغارَ سَيَعودُ إِلَيْكَ مُسَلَّحاً وَبِرِفْقَتِهِ جَوْقَةٌ مِنَ الخَدَمِ.

ـ وَهَلْ تَظُنِّينَ أَنّي سَأَخْرُجُ مِنْ هُنا قَبْلَ أَنْ أَرُدَّ لَهُ ضَرْبَتَهُ؟

عادَ إِدْغار بِرِفْقَةِ اثْنَيْنِ مِنَ العُمّالِ وَسائِقِ العَرَبَةِ.. وَهُنا فَتَحَ هيثْكْليف البابَ وَهَرَبَ. أَمّا كاتي، فَقَدْ اسْتَوْلى عَلَيْها الاضْطِرابُ، وَطَلَبَتْ مِنّي مُرافَقَتَها إِلى الطّابِقِ العُلْوِيِّ، حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَفْسِها فَوْقَ الأَريكَةِ وَهِيَ تَقولُ:

ـ أَكادُ أُجَنُّ يا نيلّي، فاطْلُبي مِنْ إيزابيلّا أَنْ تَتَجَنَّبَني، وَأَرْجو مِنْكِ أَنْ تَقولي لِإِدْغار بِأَنَّ كاتي مُهَدَّدَةٌ بِالمَرَضِ، فَأَنا أُريدُ أَنْ أَبْعَثَ فيهِ الخَوْفَ قَبْلَ أَنْ يَأْتيَ وَيَبْدَأَ بِسِلْسِلَةِ أَسْئِلَتِهِ واحْتِجاجاتِهِ.

ـ وَهُنا دَخَلَ إِدْغار قائِلاً:

ـ جِئْتُ لِأَعْرِفَ إِنْ كُنْتِ تَنْوينَ التَّخَلّي عَنْ صَداقَةِ هيثْكْليف أَمْ لا، وَأَنا مُصِرٌّ عَلى سَماعِ رَدِّكِ الآنَ.

ـ بِحَقِّ السَّماءِ، دَعْنا مِنْ هَذا الحَديثِ الآنَ. أَلا تَرى أَنَّني لا أَسْتَطيعُ تَحَمُّلَ المَزيدِ مِنَ المَصائِبِ؟

ـ أَجيبي عَلى سُؤالي، فَإِنَّ تَمْثيلَكِ لَمْ يَعُدْ يُفْزِعُني يا كاتْرين.

ـ أَرْجوكَ أَنْ تَتْرُكَني... لَمْ أَعُدْ قادِرَةً عَلى الوُقوفِ.

وَراحَتْ تَضْرِبُ رَأْسَها مِنْ دونِ وَعْيٍ، وَأَخَذَتْ أَسْنانُها وَأَطْرافُها تَرْتَجِفُ. وَدَقَّقَ إِدْغارُ النَّظَرَ، ثُمَّ طَلَبَ مِنّي أَنْ أُحْضِرَ ماءً، فَأَخَذْتُ أَمْسَحُ وَجْهَها، وَهَمَسَتْ قائِلَةً:

- لا تَخَفْ يا إدْغار، إِنَّها تَرْغَبُ أَنْ توقِعَ الذُعْرَ في قَلْبِكَ لا أَكْثَرَ. . .

وانْتَفَضَتْ مِنْ فِراشِها وَعَيْناها تَبْرُقانِ، وانْدَفعَتْ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَ غُرْفَتِها، فَلَحِقَها إدْغار. وَلَكِنَّها أَغْلَقَتِ البابَ بِالْمُفْتاحِ، وَبَقِيَتْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ مِن دونِ أَنْ تَتَناوَلَ شَيْئاً مِنَ الطَّعامِ. وَأَخيراً فَتَحَتِ البابَ، وَطَلَبَتْ مِنّي طَعاماً وَماءً ثُمَّ سَأَلَتْني:

- ماذا يَفْعَلُ ذَلِكَ المَخْلوقُ العَديمُ الشُّعورِ؟

- إِنَّ السَّيِّدَ إدْغار حالَتُهُ جَيِّدَةٌ، وَيَقْضي مُعْظَمَ أَوْقاتِهِ في مُطالَعَةِ الكُتُبِ.

- يُطالِعُ الكُتُبَ وَأَنا عَلى وَشْكِ المَوْتِ! . .

قالَتْ هَذِهِ العِبارَةَ، ثُمَّ راحَتْ تَتَأَوَّهُ مِنَ الحَرارَةِ الَّتي تَلْتَهِمُ جَسَدَها، وَطَلَبَتْ مِنّي أَنْ أَفْتَحَ النّافِذَةَ. فَعادَ لِذاكِرَتي مَرَضُها السّابِقُ وَكَلامُ الطَّبيبِ، فَقُلْتُ لَها:

- تَمَدَّدي يا كاتي، وَأَغْمِضي عَيْنَيْكِ.

- آه. . . يا لَيْتَني أَعودُ إِلى طُفولَتي، إِلى بَيْتِيَ القَديمِ، إِلى المُسْتَنْقَعاتِ.

ثُمَّ نَهَضَتْ مِنْ فِراشِها، وَفَتَحَتْ النّافِذَةَ. فَرُحْتُ أَسْتَعْطِفُها كَيْ تَبْتَعِدَ عَنِ الهَواءِ. وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ إدْغار الغُرْفَةَ، فَصَرَخْتُ قائِلَةً:

- إِنْ سَيِّدَتي مُتْعَبَةٌ، وَلَمْ يَعُدْ بِإِمْكاني السَّيْطَرَةُ عَلى تَصَرُّفاتِها.

وَجَّهَتْ كاتْرين نَظَرَها نَحْوَ إدْغار، وَلَمّا تَبَيَّنَتْهُ صَرَخَتْ بِغَضَبٍ:

- أَأَتَيْتَ أَخيراً يا إِدْغار؟ سَوْفَ تَشْعُرُ بِالأَسَفِ عِنْدَما أُصْبِحُ في القَبْرِ. . .

- نَعَمْ، إِنَّني أَشْعُرُ وَكَأَنَّني لا شَيْءَ بِالنِّسْبَةِ لَكِ. أَتُحِبّينَ هيثْكْليف؟

فَصَرَخَتْ بِحِدَّةٍ:

- سَأَقْتُلُ نَفْسي إِنْ لَمْ تَكُفَّ عَنْ ذِكْرِ اسْمِهِ. عُدْ إِلى كُتُبِكَ، فَأَنا لا أُريدُكَ هُنا.

وَقاطَعْتُ حَديثَهُما قائِلَةً:

- إِنَّ أَفْكارَها تَشْرُدُ يا سَيِّدي، وَيَجِبُ أَنْ نَكونَ حَذِرينَ مِنْ إِزْعاجِها في المُسْتَقْبَلِ. . .

ثُمَّ إِنّي تَرَكْتُهُما، وانْصَرَفْتُ أَنْتَظِرُ مَجيءَ الطَّبيبِ الَّذي دَعَوْتُهُ لِمُعايَنَتِها. وَبَعْدَ ساعَةٍ، وَصَلَ الطَّبيبُ فَقامَ بِفَحْصٍ دَقيقٍ لَها ثُمَّ أَبْلَغَ إِدْغار بِأَنَّها مُعَرَّضَةٌ لِفُقْدانِ قِواها العَقْلِيَّةِ، إِنْ لَمْ تَوَفَّرْ لَها البيئَةُ الهادِئَةُ[1].

لَمْ يَغْمَضْ لي جَفْنٌ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَكانَ باقي الخَدَمِ يَقومونَ بِواجِباتِهِمْ بِهِمَّةٍ وَنَشاطٍ. وَقَدْ وَصَلَتْ إِحْدى الخادِماتِ وَهِيَ تَلْهَثُ وَتَقولُ:

- يا سَيِّدي. . . لَقَدْ هَرَبَتْ إيزابيلّا مَعَ هيثْكْليف. . . ماذا نَفْعَلُ؟ هَلْ نُحاوِلُ البَحْثَ عَنْها؟

---

(١) البيئة الهادئة: المحيط أو البيت الهادي.

- كَلّا . لَقَدْ ذَهَبَتْ مَعَهُ بِمَحْضِ إرادَتِها ، إِنَّها بَعْدَ الآنِ شَقيقَتي بِالاسْمِ فَقَطْ .

تَحَمَّلَ إِدْغار الصُّعوباتِ الَّتي تَلَتْ مَرَضَ زَوْجَتِهِ ، رَغْمَ أَنَّ الطَّبيبَ صارَحَهُ بِعَدَمِ عَوْدَةِ كاتي لِحالَتِها الطَّبيعِيَّةِ وَكانَ إِدْغارُ مَسْروراً لِأَنَّ الخَطَرَ قَدْ زالَ عَنْ زَوْجَتِهِ ، وَخاصَّةً أَنَّ حَياةً أُخْرى تَتَعَلَّقُ بِحَياتِها . وَكُنّا آمِلينَ أَنَّ الفَرَحَ سَيَمْلأُ قَلْبَ إِدْغار عِنْدَما سَتَضَعُ زَوْجَتُهُ لَهُ وَريثاً .

وَبَعْدَ مُرورِ سِتَّةِ أَسابيعَ ، أَرْسَلَتْ إيزابيلّا رِسالَةً قَصيرَةً ، تُعْلِنُ فيها أَسَفَها العَظيمَ عَلى عَمَلِها ، وَتَطْلُبُ الصَّفْحَ مِنْ أَخيها . . لَكِنَّ إِدْغار لَمْ يَكْتَرِثْ لِرِسالَتِها . وَبَعْدَ أُسْبوعَيْنِ وَصَلَتْني رِسالَةٌ أُخْرى هَذا نَصُّها :

«عَزيزَتي نيلّلي . . . عَلِمْتُ لِلْمَرَّةِ الأولى بِمَرَضِ كاتي ، وَلا بُدَّ أَنْ يَكونَ أَخي غاضِباً مِنّي . أَرْجوكِ أَنْ توَضِّحي لي حَقيقَةَ هيثْكْليف ؛ لِأَنّي أَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ مَجْنونٌ ، وَسَأُخْبِرُكِ ما حَدَثَ مَعي عِنْدَما غادَرْتُ بَيْتَ أَخي مَعَهُ :

«وَصَلْنا بَيْتَ هِنْدْلي ، بَعْدَ غِيابِ الشَّمْسِ ، وَخَرَجَ الخادِمُ يوسُفَ وَهوَ يُلْقي نَظْرَةً غاضِبَةً عَلَيَّ ، ثُمَّ أَخَذَ الجِيادَ وانْصَرَفَ . دَخَلْتُ المَطْبَخَ ، وَهُناكَ كانَتِ الأَقْذارُ والفَوْضى . وَإِلى جانِبِ المَوْقِدِ كانَ هاريتون واقِفاً ، وَما إِنْ رَآني حَتّى راحَ يَشْتُمُني ، ثُمَّ أَفْلَتَ أَحَدَ الكِلابِ عَلَيَّ . خَرَجْتُ مِنَ المَطْبَخِ ، وَرُحْتُ أَتَجَوَّلُ في الفَناءِ ، وَقَرَعْتُ أَحَدَ الأَبْوابِ ، فَفَتَحَهُ لي رَجُلٌ ضَعيفٌ ،

عَلاماتُ المَرَضِ بادِيَةٌ عَلى وَجْهِهِ ، وَكانَ رَثَّ الثِّيابِ . . وَتَأَكَّدْتُ أَنَّهُ هِنْدْلي شَقيقُ كاترين . فَأَغْلَقَ البابَ مِن دونِ أَنْ يُحَدِّثَني بِكَلِمَةٍ ، فَسَأَلْتُهُ :

- هَلْ بِإِمْكاني أَنْ أَسْتَدْعِيَ الخادِمَةَ لِتُنَظِّفَ غُرْفَتي؟

- لَيْسَ لَدَيْنا خَدَمٌ ، عَلَيْكِ أَنْ تَخْدُمي نَفْسَكِ .

- وَأَيْنَ أَنامُ؟

- سَيَقودُكِ يوسُفُ إِلى غُرْفَةِ هيثْكْليف ، وَلَكِنْ لا تَنْسي أَنْ تُغْلِقي بابَ الغُرْفَةِ .

- لِماذا؟ .

- لِأَنَّني لَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْ قَتْلِ هيثْكْليف إِنْ رَأَيْتُ بابَ غُرْفَتِهِ مَفْتوحاً في لَيْلَةٍ ما .

- أَلَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَطْرُدَهُ مِنْ بَيْتِكَ بَدَلاً مِنْ قَتْلِهِ؟

- يَجِبُ أَنْ أَسْتَرِدَّ مالي مِنْهُ ، ثُمَّ أَقْتُلَهُ ، إِذْ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هاريتونَ شَحّاذاً . .

حَضَرَ هيثْكْليف وَأَبْلَغَني عَنْ مَرَضِ كاترين ، وَهَدَّدَني بِالانْتِقامِ مِنّي إِلى أَنْ تَسْمَحَ لَهُ الظُّروفُ بِاقْتِناصِ إِدْغار .

أَرْجوكِ يا نيلّلي ، أَنْ تُبْقي كَلِماتي هَذِهِ سِرّاً ، كَما أَرْجو حُضورَكِ لِرُؤْيَتي ، فَلا تُخَيِّبي رَجائي هَذا . . . » . وانْتَهَتِ الرِّسالَةُ .

أَطْلَعْتُ إِدْغار عَلى مُحْتَوَياتِ الرِّسالَةِ . . فَلَمْ يَكْتَرِثْ لِما تَحَمَّلَهُ إيزابيلّا وَأَجابَني :

هندلي يهدد بقتل هيثكليف

ـ اذْهَبي لِزيارَتِها بَعْدَ الظُّهْرِ، وَبَلِّغيها أَسَفي لِفِراقِها . .

تَوَجَّهْتُ نَحْوَ المُرْتَفعاتِ، وَما إِنْ دَخَلْتُ القَصْرَ، حَتّى تَقَدَّمَتْني إيزابيلّا بِلَهْفَةٍ وَهيَ تَأْمَلُ أَنْ تَسْتَلِمَ رِسالَةً مِنْ أَخيها، وَلَكِنَّ أَملَها باءَ بِالفَشَلِ . أَمّا هيثْكْليف، فَإِنَّهُ وَقَفَ، وَصافَحَني بِطَريقَةٍ وُدِّيَّةٍ، وَقَدَّمَ لي كُرْسِيّاً لِأَجْلِسَ، وَراحَ يَسْتَفْسِرُ عَنْ صِحَّةِ كاتْرين وَحالَتِها . وَأَخْبَرْتُهُ أَنَّها بِحاجَةٍ إِلى عِنايَةٍ بالِغَةٍ، وَحَنانٍ دائِمٍ، فَقالَ :

ـ هَلْ تَعْتَقِدينَ أَنَّني سَأَتْرُكُ كاتْرين تَحْتَ رِعايَةِ سَيِّدِكِ؟

ثُمَّ أَرْدَفَ قائِلاً :

ـ أَرْجوكِ يا نيلّلي أَنْ تَحْصَلي لي عَلى مَوْعِدٍ لِمُقابَلَتِها .

ـ إِنَّ أَيَّةَ زِيارَةٍ يَتَوَلَّدُ عَنْها شِجارٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ إِدْغار، وَقَدْ تَقْضي عَلى حَياةِ كاتْرين . . .

ـ بِمُساعَدَتِكِ يا نيلّلي، لَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ . . وَلَكِنْ آه . . . لا بُدَّ أَنَّكِ تَعْلَمينَ بِأَنَّ كاتي تُحِبُّني وَتُفَكِّرُ بي في كُلِّ لَحْظَةٍ، كَما أُفَكِّرُ، وَكَلِمَةٌ مِنْها تُقَرِّرُ مَصيري . . .

ـ وَهُنا صَرَخَتْ إيزابيلّا :

ـ إِنْ كاتْرين وَإِدْغار يُحِبّانِ بَعْضَهُما كَأَيِّ زَوْجَيْنِ، وَأَنا لا أَسْمَحُ لَكَ أَنْ تَحْتَقِرَ أَخي . .

فَتَدَخَّلْتُ قائِلَةً :

ـ إِنْ إيزابيلّا تَبْدو حَزينَةً يا هيثْكْليف، وَقَدْ تَعَوَّدَتْ عَلى الحَنانِ، وَهيَ بِحاجَةٍ لِمَنْ يَقومُ بِخِدْمَتِها، وَلا يُمْكِنُكَ أَنْ تُشَكِّكَ

بِعواطِفِها نَحْوَكَ، إِذْ إِنَّها تَرَكَتْ الرَّفاهِيَةِ كلَّها، وَجاءَتْ لِتَعيشَ مَعَكَ في هَذا البَيْتِ..

- إِنَّ الوَهْمَ، هو الَّذي جَعَلَها تَتَخلّى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِذْ إِنَّها حَسِبَتْني ذَلِكَ الرَّجُلَ الأُسْطوريَّ الَّذي قَرَأَتْ عَنْهُ في الرِّواياتِ، وَلا يَهُمُّني إِنْ بَدَأَتْ تَعْرِفُني عَلى حَقيقَتي. أَرْجوكِ يا نيلّلي أَنْ تَقولي لِسَيِّدَتِكِ، أَنّي لَمْ أَرَ شَخْصاً بِمِثْلِ حَقارَةِ إيزابيلا، إِنَّها تَجْلِبَ العارَ عَلى عائِلَةِ لِنْتون...

وَصَرَخَتْ إيزابيلا:

- إِنْ هيثكْليف يُصَرِّحُ بِأَنَّهُ تَزَوَّجَني لِلانْتِقام مِنْ إِدْغار، وَأَنا أُفَضِّلُ أَنْ يَقْتُلَني وَيَبْقى أَخي حَيّاً.. فَصَرَخَ قائِلاً:

- اصْعَدي إِلى غُرْفَتِكِ بِسُرْعَةٍ، إِذْ لَدَيَّ ما أَقولُهُ لِنيلّلي عَلى انْفِرادٍ.

ثُمَّ اسْتَدارَ نَحْوي وَقالَ:

- اسْمَعي يا نيلّلي، أُريدُ مُساعَدَتَكِ، إِنْ شِئْتِ أَمْ أَبَيْتِ، وَأَعِدُكِ أَنّي لَنْ أُلْحِقَ شَرّاً بِأَحَدٍ. إِنَّني أَوَدُّ الوُصولَ إِلى كاتْرين...

اعْتَرَضْتُ طَلَبَهُ وَلَكِنَّني وافَقْتُ أَخيراً عَلى أَنْ أَحْمِلَ رِسالَةً إِلى كاتي، فَإِذا رَغِبَتْ مُقابَلَتَهُ؛ عَلَيْها أَنْ تُحَدِّدَ لَهُ مَوْعِداً، يَكونُ فيهِ زَوْجُها خارِجَ البَيْتِ.

وَعِنْدَ المَساءِ، لَمَحْتُ هيثكْليف يَحومُ حَوْلَ المَزْرَعَةِ، وَفَضَّلْتُ عَدَمَ مُقابَلَتِهِ؛ لِأَنَّ الرِّسالَةَ ما زالَتْ في جَيْبي. وَفي

اليَوْمِ الرّابعِ، كانَتْ كاتي قَدْ تَحَسَّنَتْ صِحَّتُها، وَعادَ لَها رَوْنَقُها، فاقْتَرَبْتُ مِنْها، وَقُلْتُ لَها بِلُطْفٍ:

- إِنَّني أَحْمِلُ رِسالَةً لَكِ، أَرْجو مِنْكِ أَنْ تَقْرَئيها وَتَرُدّي عَلَيْها بِسُرْعَةٍ.. هَلْ تُريدينَ أَنْ أَقْرَأَها لَكِ؟

فَأَجابَتْني وَعُيونُها شارِدَةٌ:

- نَعَمْ..

فَقُلْتُ لَها:

- إِنَّها رِسالَةٌ مِنْ هَيْثكْليف، وَيَرْجو مِنْكِ مُقابَلَتَهُ.

وَهُنا ظَهَرَ عَلَيْها الاضْطِرابُ وَكَأَنَّها تُحاوِلُ اسْتِعادَةَ هَذا الاسْمِ، ثُمَّ تَنَهَّدَتْ مِن دونِ أَنْ تُدْرِكَ فَحْواها. وَبَعْدَ لَحَظاتٍ، سَمِعْتُ وَقْعَ خُطواتٍ تَقْتَرِبُ، وَأَخَذَتْ كاتْرين تَنْظُرُ ناحِيَةَ البابِ.

دَخَلَ هيثكْليف غُرْفَتَنا، واقْتَرَبَ مِنْ كاتْرين، ثُمَّ أَخَذَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ، وَدموعُهُ تَنْهَمِرُ بِغَزارَةٍ وَقالَ:

- آه يا كاتي... يا حَياتي... كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أَتَحَمَّلَ فُراقَكِ؟

فَأَجابَتْهُ وَهيَ تَسْتَلْقي في فِراشِها:

- إِنَّكَ تُشْفِقُ عَلَيَّ، بَعْدَ أَنْ حَطَّمْتَني.. تُرى هَلْ سَتَكونَ سَعيداً بَعْدَ أَنْ أُصْبِحَ تَحْتَ التُّرابِ؟ هَلْ سَتَنْساني؟

- لا تُمْعِني في تَعْذيبي يا كاتي... إِنَّ كَلِماتِكِ هَذِهِ سَتَجْعَلُ حَياتي بَعْدَكِ جَحيماً...

- إِنَّني أَتَمَنّى أَنْ لا نَفْتَرِقَ أَبَداً. أَرْجوكَ أَنْ تَغْفِرَ لي. اقْتَرِبْ مِنّي وارْكَعْ إِلى جانِبي.. فَأَنا أُحِبُّكَ.

وَهُنا الْتَقَيا في عِناقٍ طَويلٍ. واعْتَقَدْتُ أَنَّ سَيِّدَتي قَدْ غابَتْ عَنِ الوَعْيِ وَلَكِنَّها أَحاطَتْ عُنُقَهُ بِشِدَّةٍ، وَلَمْ أَعُدْ أَعرِفُ ما يَجِبُ عَلَيَّ عَمَلُهُ. أَمّا هيثْكْليف، فَقالَ:

- إِنَّكِ قاسِيَةٌ يا كاتي؛ لِأَنَّكِ خَدَعْتِ نَفْسَكِ وَحَكَمْتِ عَلَيْها بِالعَذابِ. إِنَّ المَوْتَ لَمْ يَكُنْ باسْتِطاعَتِهِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنا، وَأَنْتِ بِمَحْضِ إِرادَتِكِ أَخَذْتِ طَريقَكِ، فَحَطَّمْتِ قَلْبي، وَحَطَّمْتِ نَفْسَكِ...

- وَأَخَذَتْ كاتْرين تَبْكي بِمَرارَةٍ ثُمَّ قالَتْ:

- دَعْني يا هيثْكْليف... أَسْتَحْلِفُكَ أَنْ تَدَعَني، وَها أَنَذا أَموتُ جَزاءَ عَمَلي، فَسامِحْني...

- أُسامِحُكِ رَغْمَ كُلِّ ما فَعَلْتِهِ بي، فَأَنا أُحِبُّ قاتِلي، وَلَكِنْ، قاتِلُكِ! كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أُسامِحَهُ؟

مَرَّتْ لَحَظاتٌ والصَّمْتُ مُخَيِّمٌ عَلَيْهِما، وَقَدْ اخْتَفى وَجْهُ كُلٍّ مِنْهُما في وَجْهِ الآخَرِ. وَأَخَذْتُ أَشْعُرُ بِالقَلَقِ؛ لِأَنَّ الوَقْتَ يَمْضي بِسُرْعَةٍ، وَجَماهيرُ المُصَلّينَ تَجَمَّعَتْ في باحَةِ الكَنيسَةِ فَقُلْتُ:

- سَيَحْضُرُ سَيِّدي مِنَ الكَنيسَةِ بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ.

راحَ هيثْكْليف يَشْتُمُ، ثُمَّ احْتَضَنَ كاتي مِنْ جَديدٍ، وَهُنا بَدَأَتْ تَحْضُرُ وُفودُ الخَدَمِ. ثُمَّ فَتَحَ إِدْغار البَوّابَةَ الخارِجِيَّةَ، وَهوَ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ غُرْفَتِنا. فَصَرَخْتُ قائِلَةً:

- ها قَدْ وَصَلَ مِسْتِر لِنْتون...

- عِنْدَئِذٍ قالَ هيثْكْليف:

- يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ الآنَ يا كاتْرين. إِنَّني سَأَبْقى قَريباً مِنْ نافِذَتِكِ...

- لا.. لا يا هيثْكْليف.. أَرْجو أَنْ تَبْقى مَعي..

- كَلّا لا بُدَّ أَنْ أَرْحَلَ، فَإِنَّ إِدْغار سَيَأْتي الآنَ.

وَحاوَلَ هيثْكْليف الذَّهابَ، غَيْرَ أَنَّ كاتْرين تَمَسَّكَتْ بِهِ بِعِنادٍ جُنونِيٍّ وَهيَ تَقولُ:

- لَنْ أَتْرُكَكَ تَرْحَلُ أَبَداً، فَأَنا أَتَوَقَّعُ[١] أَنْ تَكونَ هَذِهِ السّاعَةُ لِقاءَنا الأَخيرَ...

- وَهُنا اضْطُرَّ هيثْكْليف لِلْجُلوسِ، ثُمَّ قالَ:

- سَأَبْقى إِلى جانِبِكِ يا حَبيبَتي، وَإِنْ كانَ بَقائي هُنا سَيَكونُ سَبَبَ مَوْتي...

أَسْرَعَ إِدْغار في خُطواتِهِ، وَكانَتْ ذِراعا كاتْرين آنَذاكَ قَدْ سَقَطَتا إِلى جانِبِها. وَهُنا قُلْتُ لِنَفْسي:

- «لا بُدَّ أَنْ تَكونَ كاتْرين قَدْ ماتَتْ أَوْ غابَتْ عَنِ الوَعْيِ».

وَعِنْدَما لَمَحَ إِدْغارُ خَصْمَهُ، هَجَمَ عَلَيْهِ، والغَضَبُ يَمْتَلِكُهُ، غَيْرَ أَنَّ هيثْكْليف اسْتَوْقَفَهُ قائِلاً:

- قَدِّمْ لَها مُساعَدَتَكَ، وَمِنْ ثُمَّ حَدِّثْني...

عادَتْ كاتْرين إِلى وَعْيِها، بَعْدَ أَنْ بَذَلْنا أَقْصى جُهْدِنا، وَلَكِنْ

---

(١) أتوقع: أنتظر.

مِن دونِ أَنْ تَتَعَرَّفَ عَلى أَيِّ واحِدٍ مِنّا، وَكانَ إِدْغارُ قَدْ نَسِيَ خَصْمَهُ، فَطَلَبْتُ مِنْ هيثْكْليف أَنْ يُغادِرَ البَيْتَ، بَعْدَ أَنْ وَعَدْتُهُ أَنْ أُوافيَهُ بِأَخْبارِها في الصَّباحِ التّالي فَقالَ:

- إِنَّني بِانْتِظارِكِ في الحَديقَةِ يا نيلّلي، وَإِنْ لَمْ تَفِ بِوَعْدِكِ، فَإِنّي سَأَعودُ لِزِيارَتِكُمْ، وَلا يَهُمُّني وُجودَ إِدْغار أو عَدَمُهُ. . .

في السّاعَةِ الثّانِيَةِ عَشْرَةَ لَيْلاً، وَضَعَتْ كاتي مَوْلودَتَها الجَديدَةِ، كانَتْ هَزيلَةَ الجِسْمِ، في الشَّهْرِ السّابِعِ مِنْ عُمْرِها. وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ تُوفِّيَتْ كاتي قَبْلَ أَنْ تَسْتَعيدَ وَعْيَها.

أَحْسَسْتُ بِالأَلَمِ يَعْصُرُ قَلْبي وَأَنا أَرى إِدْغارَ في لَوْعَتِهِ عَلى كاتي. . وَعِنْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ خَرَجْتُ أَبْحَثُ عَنْ هيثْكْليف، وَأَخيراً رَأَيْتُهُ مُتَّكِئاً عَلى جِذْعِ شَجَرَةٍ، يَمْسَحُ وَجْهَهُ المُبَلَّلَ بِالدَّموعِ فَقُلْتُ لَهُ:

- ضَعْ مِنْديلَكَ في جَيْبِكَ، إِنَّها لَيْسَتْ بِحاجَةٍ لِبُكائِكَ.

فَأَجابَني:

- إِنّي لَسْتُ بِحاجَةٍ لِتَعْزِيَتِكِ وَعَطْفِكِ، وَلَكِنْ كَيْفَ ماتَتْ؟

- ماتَتْ كَحَمَلٍ وَديعٍ، والابْتِسامَةُ الحُلْوَةُ مُرْتَسِمَةٌ عَلى شَفَتَيْها. غَيْرَ أَنَّها لَمْ تَسْتَعِدْ وَعْيَها مُنْذُ أَنْ غادَرْتَها أَنْتَ. .

فَصَرَخَ هيثْكْليف بِأَلَمٍ:

- لَبَّيْكَ يا إِلَهي. . أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ لا تَتْرُكَها تَشْعُرُ بِالرّاحَةِ الأَبَدِيَّةِ طالَما أَنا عَلى قَيْدِ الحَياةِ. . لَقَدْ قَتَلَتْني وَحَطَّمَتْني وَلا يُمْكِنُني أَنْ أَعيشَ مِنْ دونِها. .

وَأَخَذَ هيثْكْليف يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِالشَّجَرَةِ بِعُنْفٍ وَبَعْدَ لَحَظاتٍ اسْتَعادَ هُدوءَهُ وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أَتْرُكَهُ.

دَعَوْنا السَّيِّدَ هِنْدْلي لِلاشْتِراكِ في جَنازَةِ شَقيقَتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ، أَمّا إيزابيلّا فَلَمْ نَدْعُوها لِلْحُضورِ.

تَوَجَّهْنا نَحْوَ رابِيَةٍ خَضْراءَ قُرْبَ الكَنيسَةِ، وَهُناكَ كانَ مَثْوى كاتي الأَخيرِ. . . رَحِمَها اللهُ.

بَقِيَ إِدْغار في غُرْفَتِهِ طَوالَ اليَوْمِ التّالي، وَرُحْتُ أُداعِبُ الطِّفْلَةَ الصَّغيرَةَ الَّتي تَبْكي في أَحْضاني، وَفَجْأَةً فُتِحَ البابُ وَدَخَلَتْ إيزابيلّا. . وَتَقَدَّمَتْ مِنَ المِدْفَأَةِ وَقالَتْ:

- لا تُذْهَلي يا نيلّلي، فَإِنَّني سَأُخْبِرُكِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ لَقَدْ قَطَعْتُ مَسافَةَ أَمْيالٍ وَأَنا أَرْكُضُ مِنْ مُرْتَفَعاتِ وَذَرِنْغ إِلى هُنا. أَرْجوكِ يا نيلّلي أَنْ تُجَهِّزي لي مَرْكَبَةً توصِلُني إِلى جيمِرْتون، وَأَنْ تَطْلُبي مِنْ أَحَدِ الخَدَمِ أَنْ يُحْضِرَ لي بَعْضَ مَلابِسي.

كانَ شَعْرُها مُنْسَدِلاً عَلى كَتِفَيْها، والماءُ يَتَساقَطُ مِنْهُ، وَلَمَحْتُ جُرْحاً بَليغاً في أَسْفَلِ أُذُنِها، وَوَرَماً فَظيعاً يَمْلأُ وَجْهَها.

أَسْرَعْتُ في تَضْميدِ جُرْحِها، وَساعَدْتُها عَلى اسْتِبْدالِ مَلابِسِها المُبَلَّلَةِ. وَجَلَسَتْ قُرْبَ المِدْفَأَةِ، وَهِيَ تَشْرَبُ فُنْجانَ الشّايِ الَّذي قَدَّمْتُهُ لَها ثُمَّ قالَتْ:

- أَبْعِدي هَذِهِ الطِّفْلَةَ عَنّي. . أَتَظُنّينَ يا نيلّلي أَنَّني أَكْرَهُ كاتي. . لَقَدْ بَكَيْتُ كَثيراً عِنْدَ وَفاتِها، وَلَكِنَّني امْتَنَعْتُ عَنْ مُشارَكَةِ هيثْكْليف أَحْزانَهُ.

ثُمَّ خَلَعَتْ إيزابيلّا خاتَمَ الزَّواجِ مِنْ أُصبعِها وَرَمَتْهُ في النّارِ بِطَريقَةٍ صِبْيانيَّةٍ وَهيَ تَقولُ:

- إنَّ هَذا القَيْدَ هوَ آخِرُ ما يَرْبِطُني بِهيثْكْليف، وَها أنَّني قَدْ تَخَلَّصْتُ مِنْهُ. إنَّ الضرورَةَ أَجبَرَتْني على العَوْدَةِ إلَيْكُم، لَكِنَّني لَنْ أَمْكُثَ طَويلاً بَيْنَكُمْ إذْ إنَّ هيثْكْليف سَيأْتي إلى هُنا لِلْبَحْثِ عَنّي. وَبالإضافَةِ إلى ذَلِكَ فَإنّي لا أُريدُ أنْ أَزيدَ مَشاكِلَ شَقيقي إدْغار طالَما لَمْ يَكُنْ مُتَسامِحاً مَعي.. إنْ هيثْكْليف يَكْرَهُني وَيَكْرَهُ رُؤْيَتي، وَأنا واثِقَةٌ بِأنَّهُ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مُلاحَقَتي، عِنْدَما أَهْرُبُ إلى إنْكِلْترا.. يَجِبُ أنْ أَذْهَبَ مِنْ هُنا فَوْراً..

تَوَقَّفَتْ إيزابيلّا عَنِ الحَديثِ، ثُمَّ اتَّجَهَتْ نَحْوَ صورَةٍ لإدْغار وَكاتْرين وَراحَتْ تُقَبِّلُها، ثُمَّ قَبَّلَتْني، ثُمَّ اتَّجَهَتْ نَحْوَ العَرَبَةِ. وَحاوَلْتُ إقْناعَها بالبَقاءِ مَعَنا، وَلَكِنَّها تَرَكَتْنا مِن دونِ أنْ تَتَرَدَّد.

غادَرَتْ إيزابيلّا المَزْرَعَةَ إلى غَيْرِ عَوْدَةٍ، وَبَعْدَ عِدَّة أسابيع أَخَذَتْ تَتَبادَلُ الرَّسائِلَ مَعَ أخيها. لَقَدْ سَكَنَتْ في لُنْدُنْ وَهُناكَ وَضَعَتْ طِفْلاً وَأَطْلَقَتْ عَلَيْهِ اسْمَ لِنتونْ، وَكانَ هَذا الطِّفْلُ ضَعيفاً وَتَعِباً مُنْذُ وِلادَتِهِ.

وَذاتَ يَوْمٍ، الْتَقَيْتُ بِهيثْكْليف، وَراحَ يَسْأَلُ عَنْ إيزابيلّا، وَعَنْ مَكانِ إقامَتِها، لَكِنّي رَفَضْتُ طَلَبَهُ، ثُمَّ سَأَلَني عَنِ الصَّبيِّ، وَأَجابَني قائِلاً:

- إنَّني أَسْتَطيعُ أنْ أَنالَ كُلَّ ما أُريدُ.

انْقَطَعَتْ إيزابيلّا عَنْ مُراسَلَتِنا ثُمَّ بَلَغَنا نَبَأُ وَفاتِها. أَمّا إدْغار،

فامْتَلأَ قَلْبُهُ حُزْناً وَبُؤْساً، وَأَصْبَحَتْ حياتُهُ شَبيهَةً بِحياةِ النُسّاكِ. كانَ يَتَفادى الذَّهابَ إلى القَرْيَةِ، وَلا يُفارِقُ حُدودَ أَرْضِهِ إلّا عِنْدَما يُقَرِّرُ زِيارَةَ قَبْرِ زَوْجَتِهِ، وَكانَتِ ابْنَتُهُ الصَّغيرَةُ، المُؤْنِسَ الوَحيدَ لَهُ. أَمّا هِنْدلي، فَقَدْ تُوفِّيَ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَفاةِ شَقيقَتِهِ كاتْرين، وَكانَ آنَذاكَ في السّابِعَةِ والعِشْرينَ مِنَ العُمُرِ.

طَلَبْتُ مِنَ السَّيِّدِ إدْغار أنْ يَسْمَحَ لي بِالذَّهابِ لِتَأْدِيَةِ واجِبي الأخيرِ تِجاهَ هِنْدلي لَكِنَّ إدْغار لَمْ يوافِقَ عَلى ذَهابي في بادِئِ الأَمْرِ، واسْتَطَعْتُ أنْ أُقْنِعَهُ أَخيراً، بِأَنَّ هِنْدلي هوَ سَيِّدي القَديم، كَما أَنَّ الطِّفْلَ هاريتونْ هو ابْنُ أَخِ زَوْجَتِهِ، وَذَكَّرْتُهُ بِأَنَّهُ يَجِبُ أنْ يَكونَ وَصيّاً عَلَيْهِ، وَأنْ يَسْتَوْضِحَ عَمّا بَقِيَ مِنْ مُمْتَلَكاتِ المُتَوفّى. وَهُنا وافَقَ السَّيِّدُ إدْغار وَطَلَبَ مِنّي أنْ أَتَحَدَّثَ مَعَ «غْرين» مُحاميهِ والَّذي كانَ مُحامياً لِهِنْدلي فيما مَضى.. ذَهَبْتُ إلَيْهِ في مَنْزِلِهِ وَشَرَحْتُ لَهُ الأَمْرَ، فَنَصَحَني أنْ أَتْرُكَ قَضيَّةَ المُمْتَلَكاتِ والإرْثِ لأَنَّ هِنْدلي تُوفِّيَ وكانَتِ الدُّيونُ مُتراكِمَةً عَلَيْهِ، كَما أَنَّ مُعْظَمَ مُمْتَلَكاتِهِ مَرْهونٌ[1].

وَقَدْ فَرِحَ يوسُفُ لَدى وُصولي القَصْرَ، أَمّا هيثْكْليف فاسْتَقْبَلَني بِهُدوءٍ وَقالَ:

- انْظُري هَذا المَجْنونَ.. فَإنَّهُ أَغْلَقَ جَميعَ أَبْوابِ القَصْرِ بِوَجْهي وَمَنَعَني مِنَ الدُّخولِ. وَفي الصَّباحِ تَمَكَّنْتُ مِنَ الدُّخولِ

---

(١) بيت مرهون: مديون عليه.

وَوَجَدْناهُ قَدْ فارَقَ الحَياةَ. . بِالحَقيقَةِ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكاني أَنْ أَتَحَمَّلَ أَكْثَرَ مِمّا تَحَمَّلْتُ مِنْهُ.

أَصْرَرْتُ عَلى أَنْ تَكونَ جَنازَةُ هِنْدلي مُحْتَرَمَةً فَأَجابَني بِلا مُبالاةٍ:

ـ افْعَلي ما تُريدينَ، لَكِنّي أَرْجو أَنْ تَكوني عَلى عِلْمٍ بِأَنَّ المالَ الَّذي سَيُصْرَفُ عَلى جَنازَتِهِ هوَ مالي.

انْتَهَيْنا مِنْ تَشْييعِ هِنْدلي. . وَطَلَبْتُ مِنْ هيثْكْليف بِالسَّماحِ لي بِاصْطِحابِ الصَّبِيِّ هاريتونْ إِلى ثْراشْ كروس فَقالَ:

ـ هَلْ طَلَبَ مِنْكِ إِدْغار ذَلِكَ؟

ـ بِالطَّبْعِ. . لَقَدْ أَمَرَني بِهِ.

ـ إِذَنْ قولي لِسَيِّدِكِ بِأَنْ يَرُدَّ لي ابْنَتي لِأَنَّني أُريدُ أَنْ أَمْتَحِنَ قُدْرَتي في تَرْبِيَةِ طِفْلَةٍ صَغيرَةٍ.

كانَ حَديثُهُ هَذا بِمَثابَةِ تَهْديدٍ. وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَصْبَحَ هيثْكْليف سَيِّدَ مُرْتَفَعاتِ وِذْرِنْغ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ لِلْمُحامي الإِثْباتاتِ الكافِيَةَ الَّتي بِمَوْجِبِها رَهَنَ هِنْدلي كُلَّ ما يَمْلِكُهُ. . . أَمّا هارْتيونْ فَقَدْ عاشَ في بَيْتِهِ كَخادِمٍ بَدَلاً مِنْ أَنْ يَكونَ السَّيِّدَ الأَوَّلَ لِلْمِنطَقَةِ.

❂ ❂ ❂

مَرَّتِ اثْنَتا عَشْرَةَ سَنَةٍ كُنْتُ خِلالَها أَسْعَدَ إِنْسانٍ، إِذْ كانَتْ كاتْرين الصَّغيرَةُ الشُّعْلَةَ الوَحيدَةَ الَّتي أَضاءَتْ هَذا البَيْتِ الحَزينِ. كانَ وَجْهُها جَميلاً، وَروحُها مَرِحَةً، أَمّا قَلْبُها فَكانَ

رَقيقاً مُحِبّاً. وَقَدْ تَوَلّى إِدْغار تَثْقيفَها، وَكانَ يَصْطَحِبُها في بَعْضِ المُناسَباتِ. أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِمُرْتَفعاتِ وِذْرِنْغ وَهيثْكْليف، فَلَمْ تَكُنْ عَلى عِلْمٍ بِهِما، بَلْ كانَتْ تَسْتَعْطِفُ والِدَها لِاصْطِحابِها إِلى كَهْفِ الجِنِّيَّةِ الَّذي أَخْبَرَتْها عَنْهُ إِحْدى الخادِماتِ.

كانَتْ عائِلَةُ لِنْتون رَقيقَةً بِطَبيعَةِ الحالِ، وَقَدْ أَرْسَلَتْ إِزابيلّا قَبْلَ وَفاتِها تَطْلُبُ مِنْ إِدْغار الحُضورَ إِلَيْها لِتوَدِّعَهُ، وَلِتُسَلِّمَهُ ابْنَها. وَكَغَيْرِ عادَتِهِ، سافَرَ سَيِّدي فَوْراً وَتَرَكَ كاتْرين الصَّغيرَةَ تَحْتَ رِعايَتي، وَأَمَرَني أَنْ لا أَتْرُكَها تَخْرُجُ مِنَ القَصْرِ حَتّى مَعي.

وَتَغَيَّبَ إِدْغار عَنِ البَيْتِ ثَلاثَةَ أَسابيعَ، وَخِلالَها لَمْ تُفارِقْني كاتي الصَّغيرَةُ لَحْظَةً. وَذاتَ يَوْمٍ طَلَبَتْ مِنّي أَنْ أُزَوِّدَها بِالطَّعامِ، ثُمَّ حَمَلَتْ سَلَّتَها وَذَهَبَتْ.

كُنْتُ واثِقَةً مِنْ أَنْ كاتي لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَبْتَعِدَ عَنِ البَيْتِ وَخاصَّةً لِأَنَّ الأَبْوابَ جَميعَها مُقْفَلَةٌ.

طالَ انْتِظاري وَلَمْ تَعُدْ، وَرُحْتُ مَعَ باقي الخَدَمِ نُفَتِّشُ عَنْها في جَميعِ الاتِّجاهاتِ، وَهُنا الْتَقَيْتُ بِأَحَدِ العُمّالِ: فَسَأَلْتُهُ إِنْ كانَ قَدْ رَأى سَيِّدَتي الصَّغيرَةَ، فَأَجابَني:

ـ لَقَدْ رَأَيْتُها هَذا الصَّباحَ وَهِيَ تَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ السِّياجِ ثُمَّ غابَتْ عَنْ نَظَري. . .

قُلْتُ بِنَفْسي: «لا بُدَّ أَنْ تَكونَ كاتي قَدْ ذَهَبَتْ إِلى الصُّخورِ، فَتَحَرَّكْتُ مِنْ سُكوني وَرُحْتُ أَسيرُ ميلاً بَعْدَ ميلٍ، إِلى أَنْ أَصْبَحْتُ قَريبَةً مِنْ مُرْتَفَعاتِ وِذْرِنْغ.

قَرَعْتُ البابَ بِشِدَّةٍ، فَأَطَلَّ عَلَيَّ وَجْهُ امْرَأَةٍ، عَرَفْتُها؛ لِأَنَّها كانَتْ تَعْمَلُ كَخادِمَةٍ هُناكَ مُنْذُ وَفاةِ هِنْدلي. وَما أَنْ لَمَحَتْني حَتّى قالَتْ لي:

ـ لا بُدَّ أَنَّكِ جِئْتِ تَبْحَثينَ عَنِ السَّيِّدَةِ الصَّغيرَةِ... لا تَخافي، إِنَّها في أَمانٍ، كَما أَنَّ السَّيِّدَ هيثكْليف مِنْ حُسْنِ الحَظِّ لَيْسَ هُنا، فَهُوَ لا يَعودُ في مِثْلِ هَذا الوَقْتِ أَبَداً، أُدْخُلي واسْتَريحي.

هُناكَ وَجَدْتُ كاتي جالِسَةً عَلى مَقْعَدٍ صَغيرٍ، كانَ فيما مَضى لِوالِدَتِها... كانَتْ كاتي الصَّغيرَةُ تَبْتَسِمُ وَكَأَنَّها في بَيْتِها، وَإِلى جانِبِها هاريتون يُحَدِّثُها، وَكانَ آنَذاكَ قَدْ بَلَغَ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، قَوِيَّ البُنْيَةِ، مَفْتولَ العَضَلاتِ، يَرْمُقُ كاتي بِنَظَراتِ إِعْجابٍ وَتَقْديرٍ..

قُلْتُ لَها بِنَظْرَةٍ غاضِبَةٍ وَأَنا أُحاوِلُ إِخْفاءَ سُروري:

ـ إِنَّ تَصَرُّفَكِ أَقْلَقَني يا آنِسَتي وَلَنْ أَسْمَحَ لَكِ بِمُغادَرَةِ البَيْتِ أَبَداً إِلى أَنْ يَعودَ والِدُكِ.

فَأَخَذَتْ تَبْكي وَقالَتْ:

ـ ماذا فَعَلْتُ... إِنَّ والِدي لا يُحَدِّثُني بِهَذِهِ اللَّهْجَةِ القاسِيَةِ...

لَمْ أَكْتَرِثْ لِحَديثِ الخادِمَةِ الَّتي حاوَلَتْ أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ غَضَبي وَتابَعْتُ حَديثي قائِلَةً:

ـ إِلى مَتى تَتْرُكيني أَنْتَظِرُ يا كاتي؟

واقْتَرَبْتُ مِنْها لِأُعْطِيَها قُبَّعَتَها، لَكِنَّها هَرَبَتْ مِنّي، وَراحَتْ تَرْقُصُ وَتَقْفِزُ بِشَكْلٍ يُثيرُ الضَّحِكَ. أَمّا أَنا فَصَرَخْتُ بِها قائِلَةً:

ـ لَوْ كُنْتِ تَعْرِفينَ في بَيْتِ مَنِ الآنَ، لَأَسْرَعْتِ لِلْخُروجِ...

اسْتَدارَتْ كاتي وَسَأَلَتْ هاريتون:

ـ أَلَيْسَ هَذا بَيْتَكَ؟

فَأَجابَها بِتَلَعْثُمٍ:

ـ هَذا... كَلّا...

ـ لِمَنْ إِذَنْ هَذا البَيْتُ؟

صَرَفَ هاريتون نَظَرَهُ عَنْها، دونَ أَنْ يَنْطُقَ بِكَلِمَةٍ، أَمّا كاتي فَقالَتْ:

ـ إِنَّني خُدِعْتُ بِطَريقَةِ حَديثِهِ، إِذْ انَّهُ كانَ يُحَدِّثُني دونَ أَنْ يَقولَ لي يا آنِسَة، وَكَأَنَّهُ صاحِبُ البَيْتِ، وَلَوْ كانَ واحِدٌ مِنْ خَدَمِ البَيْتِ لَكانَ مِنْ واجِبِهِ أَنْ يُلْقي عَلَيَّ لَقَبَ آنِسَةٍ قَبْلَ كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُها، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

ثُمَّ الْتَفَتَتْ نَحْوَهُ وَقالَتْ:

ـ أَحْضِرْ لي جَوادي... أَسْرِعْ.. ماذا بِكَ؟

ثُمَّ وَجَّهَتْ حَديثَها لي وَهِيَ تَقولُ:

ـ كَيْفَ يَسْمَحُ لِنَفْسِهِ أَنْ يُكَلِّمَني مِن دونِ اهْتِمامٍ أَوْ احْتِرامٍ؟ إِنَّني سَأُخْبِرُ والِدي عَنْ هَذا الإِنْسانِ القَذِرِ.

لَمْ يَكْتَرِثْ هاريتون لِتَهْديداتِها رُغْمَ الدُّموعِ الَّتي انْهَمَرَتْ عَلى

خَدَّيْها، وَجَّهَتْ حَديثَها لِلْخادِمَةِ وَهيَ تَقولُ: «أَنْتِ.. أَحْضِري لي جَوادي».

فَأَجابَتْها الخادِمَةُ بِرِقَّةٍ:

ـ اهْدَئي يا آنِسَتي... إِنَّ السَّيِّدَ هاريتون، هو ابنُ خالِكِ..

ـ ابْنُ خالي؟ إِذَنْ، لِماذا ذَهَبَ والِدي إِلى لُنْدُنْ؟

أَصابَني الإِزْعاجُ، عِنْدَما رَأَيْتُ كاتي تَبْكي. بِالإِضافَةِ إِلى ذَلِكَ، فَنَحْنُ كَشَفْنا لَها عَنْ أَسْرارٍ، كانَ مِنَ الواجِبِ أَنْ تَبْقى بَعيدَةً عَنْها، وَلا بُدَّ أَنْ تَطْلُبَ مِنْ والِدِها إِيضاحاً بِالنِّسْبَةِ لِقَرابَةِ هاريتون لَها. وَبَعْدَ لَحَظاتٍ عادَ هاريتون لِهُدوئِهِ، فَأَحْضَرَ لَها جَوادَها مَعَ كَلْبٍ صَغيرٍ وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْها، وَطَلَبَ مِنْها أَنْ تَكُفَّ عَنِ البُكاءِ...

كانَ هاريتون فَقيراً، قَوِيَّ البُنْيَةِ، جَميلَ القَدِّ، رَغْمَ المَلابِسِ الَّتي لا تُناسِبُهُ، تَدُلُّ قَسَماتُ وَجْهِهِ عَلى صِفاتٍ حَميدَةٍ. وَهُنا فَهِمْتُ بِأَنَّ هيثْكْليفَ عَمَدَ إِلى إِبْقاءِ هاريتون هَمَجِيّاً غَيْرَ مُتَمَدِّنٍ، شَرِسَ الأَخْلاقِ لا يُجيدُ القِراءَةَ والكِتابَةَ. وَبَعْدَ ذَلِكَ عَزَمْنا العَوْدَةَ إِلى البَيْتِ.

وَهُناكَ وَصَلَتْني رِسالَةٌ مِنْ إِدْغار يُخْبِرُني بِها عَنْ مَوْعِدِ عَوْدَتِهِ، وَيَطْلُبُ مِنّي أَنْ أُجَهِّزَ غُرْفَةً لابْنِ شَقيقَتِهِ المُتَوَفّاةِ.

بَعْدَ أَيّامٍ وَصَلَتِ العَرَبَةُ، وَنَزَلَ إِدْغار مِنْها، وَهَرَعَتْ كاتْرين إِلَيْهِ، فَحَمَلَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ، وَراحَ يُقَبِّلُها بِشَوْقٍ. أَلْقَيْتُ نَظْرَةً عَلى لِنْتون الصَّغيرِ الَّذي كانَ يَرْقُدُ في زاوِيَةِ العَرَبَةِ؛ كانَ وَجْهُهُ شاحِباً، وَجِسْمُهُ ضَعيفاً.

واسْتَفاقَ لِنْتون مِنْ نَوْمِهِ، فَحَمَلَهُ سَيِّدي ثُمَّ أَنْزَلَهُ وَهو يَقولُ لَهُ:

ـ إِنَّ كاتي مُشْتاقَةٌ لَكَ، حاوِلْ أَنْ تَكونَ مَرِحاً مَعَها..

دَخَلَ إِدْغار وَكاتي وَلِنْتونْ إِلى غُرْفَةِ المَكْتَبَةِ حَيْثُ كانَ الشّايُ جاهِزاً، أَمّا لِنْتون فَقَدْ احْتَجَّ قائِلاً:

ـ بِإِمْكاني أَنْ أَجْلِسَ عَلى هَذا الكُرْسِيِّ.. فَأَجابَهُ إِدْغار:

ـ اذْهَبْ، واجْلِسْ فَوْقَ الأَريكَةِ هُناكَ، وَسَتُحَضِّرُ لَكَ نيلّلي الشّايَ..

أَخَذَتْ كاتي أَحَدَ الكَراسي مَعَ فُنْجانِ الشّايِ واقْتَرَبَتْ مِنْ لِنْتون ثُمَّ جَلَسَتْ إِلى جانِبِهِ. وَبَقِيَتْ صامِتَةً في بادِئِ الأَمْرِ، ثُمَّ راحَتْ تُمَرِّرُ يَدَها فَوْقَ شَعْرِهِ بِلُطْفٍ، وَقَدَّمَتْ لَهُ فِنْجانَها بَعْدَ أَنْ طَبَعَتْ عَلى خَدَّيْهِ عِدَّةَ قُبُلاتٍ. فانْفَرَجَتْ أَسارير لِنْتون، وَجَفَّتْ دُموعُهُ، وَأَخَذَ يَبْتَسِمُ. وَخاطَبَني إِدْغار والسَّعادَةُ تَمْلأُ قَلْبَهُ:

ـ سَتَطيبُ لَهُ الحَياةُ مَعَنا يا نيلّلي، لَوْ اسْتَطَعْنا الاحْتِفاظَ بِهِ مَعَنا...

أَمّا أَنا فَقُلْتُ بِنَفْسي: «أَتَمَنّى أَنْ يَبْقى مِنْ كُلِّ قَلْبي» وَلَكِنَّ الأَمَلَ ضَعيفٌ في ذَلِكَ..

أَسْدَلَ اللَّيْلُ رِداءَهُ الأَسْوَدُ، وَقَبَّلْتُ الطِّفْلَيْنِ، وَطَلَبْتُ مِنْهُما أَنْ يَتْبَعاني إِلى غُرْفَةِ النَّوْمِ، وَبَقيتُ إِلى جانِبِهِما إِلى أَنْ تَأَكَّدْتُ مِنِ اسْتِسْلامِهِما لِنَوْمٍ عَميقٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الغُرْفَةِ. وَكانَتْ دَهْشَتي كَبيرَةً عِنْدَما قابَلَني أَحَدُ الخَدَمِ وَأَعْلَمَني أَنَّ يوسُفَ، خادِمَ هيثْكْليف، يَنْتَظِرُ في الخارِجِ، لِمُقابَلَةِ السَّيِّدِ إِدْغار.

تَرَدَّدْتُ كَثيراً قَبلَ أَنْ أُبَلِّغَ إِدْغار هَذا النَّبأَ، ثُمَّ صَعِدْتُ إِلى غُرْفَتِهِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِقُدومِ هَذا الزّائِرِ. وَكانَ يوسُفُ قَدْ تَبِعَني. . وَقالَ:

- أَرْسَلَني هيثْكْليف لِأَخْذِ ابْنِهِ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ أَعودَ إِلَيْهِ مِنْ دونِهِ. . .

اسْوَدَّتِ الدُّنيا بِعَيْنَيْ إِدْغار وَامْتَلأَ قَلْبُهُ بِالحُزْنِ والأَلَمِ، وَبَعْدَ صَمْتٍ دامَ بِضْعَ دَقائِقَ قالَ:

- قُلْ لِسَيِّدِكَ أَنَّ ابْنَهُ مُتْعَبٌ جِدّاً وَهوَ نائِمٌ الآنَ. وَفي صَباحِ الغَدِ سَيَكونُ لِنتون عِنْدَهُ.

وانْصَرَفَ يوسُفُ بَعْدَ أَنْ هَدَّدَنا بِمَجيءِ هيثْكْليف في اليَوْمِ التّالي. .

وَفي الصَّباحِ، أَمَرَني إِدْغار بِأَنْ آخُذَ الصَّبيَّ إِلى والِدِه ثُمَّ أَضافَ قائِلاً:

- يَجِبُ أَنْ لا تُعْلِمي كاتي عَنْ مَكانِ لِنتون، وَإِنْ سَأَلَتْكِ عَنْهُ أَجيبيها بِأَنَّ والِدَهُ قَدْ حَضَرَ إِلى هُنا واصْطَحَبَهُ مَعَهُ. .

وَرَفَضَ لِنتونْ أَنْ يَقومَ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الجَديدَةِ وَتَمَسَّكَ بِفِراشِهِ، وَلَكِنَّني رُحْتُ أُخَفِّفُ مِنْ حُزْنِهِ بِقَوْلي لَهُ:

- إِنَّ والِدَكَ مُشْتاقٌ إِلَيْكَ. سَنُمْضي بِضْعَةَ أَيّامٍ هُناكَ، ثُمَّ نَعودُ.

- والِدي!! إِنَّ والِدَتي لَمْ تَذْكُرْ لي أَبَداً كَلِمَةَ والِدٍ. . . إِنْ كانَ لي والِدٌ، فَلِماذا لَمْ يَعِشْ مَعَ والِدَتي تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ؟

- لَقَدْ كانَ والِدُكَ يَعْمَلُ في الشَّمالِ بَعيداً عَنْكُمْ، أَمّا والِدَتُكَ فَكانَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ تَبْقى في الجَنوبِ لِأَنَّها مَريضَةٌ.

- إِنَّ والِدَتي كانَتْ تُخْبِرُني الكَثيرَ عَنْ خالي، وَهَذا ما جَعَلَني أُحِبُّهُ، فَكَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أُحِبَّ شَخْصاً لَمْ أَرَهُ، وَلَمْ أَسْمَعْ عَنْهُ شَيْئاً. . . قولي لي هَلْ سَتَذْهَبُ الفَتاةُ مَعَنا؟

- كَلّا. . سَنَذْهَبُ أَنا وَأَنْتَ فَقَطْ. . .

- إِذَنْ لَنْ أَذْهَبَ. .

وَأَخيراً اسْتَطَعْتُ أَنْ أُقْنِعَهُ بِمُساعَدَةِ إِدْغار الَّذي وَعَدَهُ بِأَشْياءَ كَثيرَةٍ. وَهُنا أَخَذَ لِنتون يَسْأَلُ عَنْ بَيْتِهِ الجَديدِ، وَعَنْ شَكْلِ والِدِه. فَأَجَبْتُهُ:

- إِنَّ بَيْتَكَ لَيْسَ كَبيراً، أَمّا والِدُكَ فَهو بِعُمْرِ خالِكَ، لَكِنَّهُ أَسْوَدُ الشَّعْرِ، عَيْناهُ عَميقَتانِ سَوْداوتانِ، شَرِسُ الخُلُقِ، كَريمٌ، وَأَنا واثِقَةٌ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُحِبُّكَ أَكْثَرَ مِنْ خالِكَ، لِأَنَّهُ والِدُكَ. .

وَصَلْنا إِلى قَصْرِ هيثْكْليف في السّاعَةِ السّادِسَةِ صَباحاً، وَكانَ لِنْتونَ طَوالَ رِحْلَتِنا مُسْتَغْرِقاً في تَفْكيرِه. كانَتِ العائِلَةُ قَدِ انْتَهَتْ مِنْ طَعامِ الفُطورِ، وَما إِنْ رَآنا هيثْكْليف حَتّى صَرَخَ قائِلاً:

- هالو نيلّلي، أَيْنَ وَلَدي؟

ثُمَّ نَهَضَ وَتَوَجَّهَ نَحْوَ البابِ، وَتَبِعَهُ هاريتونْ والخادِمُ بِدافِعِ الفُضولِ. أَمّا لِنْتونْ، فَكانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِخَوْفٍ. وَضَحِكَ هيثْكْليف بِاسْتِهْزاءٍ، وَقالَ:

- يا لِهَذِهِ الهَيْئَةِ! إِنَّهُ أَسْوَأُ مِمّا ظَنَنْتُ!

عِنْدَئِذٍ طَلَبْتُ مِنْ لِنْتون أَنْ يَدْخُلَ، وَشَكَرْتُ الله على أَنَّهُ لَمْ يَفْهم شَيْئاً مِنْ حَديثِ والِدِهِ. كانَ لِنْتون يَرْتَجِفُ، وَلَمْ يَعْرِفْ بَعْدُ، أَنَّ هَذا الرَّجُلَ الغَريبَ، هوَ والِدُهُ، لِذا فَإِنَّهُ تَشَبَّثَ بي وَهو يَرْتَجِفُ. لَكِنَّ هيثْكْليف أَمَرَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْهُ، غَيْرَ أَنَّ لِنْتون ازْدادَ خَوْفاً، وَأَخَذَ يَبْكي.

عِنْدَئِذٍ مَدَّ هيثْكْليف يَدَهُ وَجَذَبَهُ بِقوَّةٍ وَهو يَقولُ:

ـ اسْمُكَ لِنْتون، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِنَّكَ تُشْبِهُ والِدَتَكَ تَماماً، أَيْنَ حِصَّتي فيكَ؟ إِنَّنا لا نُريدُ إيذاءَكَ.. هَلْ تَعْرِفُني يا لِنْتون؟

فَأَجابَهُ لِنْتون والخَوْفُ بادٍ في عَيْنَيْهِ:

ـ كَلّا.. ما رَأَيْتُكَ قَطُّ.

ـ يا لَلْعارِ. كَيْفَ لا توقِظُ والِدَتُكَ شُعورَكَ نَحْوي؟.. أَنْتَ وَلَدي يا لِنْتون، وَسَأَعْتَني بِكَ، فَكُنْ وَلَداً طَيِّباً. وَأَنْتِ يا نيلّلي، انْصَرِفي لِأَنَّكِ مُتْعَبَةٌ.

ـ أَرْجو أَنْ تَكونَ مَعَهُ كَريماً يا مِسْتَر هيثْكْليف.

ـ لا تَخافي، إِنَّني سَأَكونُ مَعَهُ لَطيفاً وَكَريماً.. وَبُرْهاناً على ذَلِكَ، قُمْ يا يوسُفُ وَأَحْضِرِ الطَّعامَ لِلصَّبِيِّ، وَأَنْتَ يا هاريتون: اذْهَبْ إِلى عَمَلِكَ.

ثُمَّ أَضافَ بَعْدَ ذَهابِهِمْ يُخاطِبُ نَفْسَهُ: «إِنَّ وَلَدي سَيَكونُ مَلِكاً عَلَيْهِمْ، وَمالِكاً لِمُمْتَلَكاتِهِمْ، أُريدُ أَنْ أَبْتَهِجَ، وَأَنا أَراهُ يَسْتَخْدِمُ أَبْناءَهُمْ في زِراعَةِ أَراضي آبائِهِمْ. إِنَّني أَكْرَهُهُ لِأَنَّهُ أَعادَ لي ذِكْرَياتِ الماضي، وَلَكِنَّهُ سَيَبْقى بِأَمانٍ مَعي. لَقَدْ أَمَرْتُ الجَميعَ بِإِطاعَتِهِ، وَتَنْفيذِ أَوامِرِهِ».

أَحْضَرَ يوسُفُ طَعامَ الفُطورِ، وانْصَرَفْتُ مِنْ دونِ أَنْ يَراني لِنْتون.

كُنْتُ أُقابِلُ مُدَبِّرَةَ المَنْزِلِ، في مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنْغ، وَأَسْتَطْلِعُها[1] الخَبَرَ عَنْ صِحَّةِ لِنْتون. وَكانَتْ كاتي آنَذاكَ قَدْ بَلَغَتِ السّادِسَةَ مِنْ عُمْرِها. أَمّا إِدْغارَ، فَكانَ يَقْضي مُعْظَمَ أَوْقاتِهِ وَحيداً، يَقومُ بِزِيارَةِ قَبْرِ زَوْجَتِهِ بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ. وَذاتَ يَوْمٍ، نَزَلَتْ كاتي وَهِيَ مُرْتَدِيَةٌ لِباسَها الجَميلَ وَطَلَبَتْ مِنّي مُرافَقَتَها إِلى المُسْتَنْقَعاتِ، بَعْدَ أَنْ سَمَحَ لَها والِدُها بِذَلِكَ.

كانَتْ كاتي سَعيدَةً جِدّاً بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ الدّافِئَةِ، وَأَخَذْتُ أَشْعُرُ بِالتَّعَبِ، وَطَلَبْتُ مِنْها العَوْدَةَ إِلى البَيْتِ، لَكِنَّها تَجاهَلَتْ نِدائي، وَأَخَذَتْ تَرْكُضُ.. وَعَنْ بُعْدِ ميلَيْنِ رَأَيْتُ شَخْصَيْنِ يُمْسِكانِ بِها! وَتَبَيَّنْتُ أَحَدَهُما فَكانَ هيثْكْليف. أَسْرَعْتُ الخُطى، وَسَمِعْتُهُ يُحَذِّرُها، فَقُلْتُ لَهُ بِأَنَّها لَمْ تَسْرِقْ شَيْئاً ثُمَّ قالَتْ:

ـ قالَ لي والِدي أَنَّ العَصافيرَ توجَدُ بِكَثْرَةٍ هُنا، أَلا تَعْرِفُ والِدي؟..

ـ مَنْ هو والِدُكِ؟

ـ مِسْتَر لِنْتون، صاحِبُ مَزْرَعَةِ تراشْ كْروس، إِنَّني مُتَأَكِّدَةٌ أَنَّكَ لَوْ عَرَفْتَهُ لَما تَحَدَّثْتَ إِلَيَّ هَكَذا...

ـ أَتَعْتَقِدينَ أَنَّ والِدَكِ رَجُلٌ مُحْتَرَمٌ؟

(١) أستطلعها: أفهم منها الخبر.

وَسَأَلَتْهُ كاتي وَهيَ تُشيرُ إِلى هاريتونْ:

- مَنْ أَنْتَ؟ وَمَنْ هَذا الشّابُّ، أَهوَ ابْنُكَ؟

وَهُنا تَدَخَّلْتُ بَعْدَ أَنْ وَصَلْتُ. . وَقُلْتُ:

- يَجِبُ أَنْ نَعودَ إِلى البَيْتِ يا كاتي، لَقَدْ تَأَخَّرْنا.

وَأَجابَها هيثْكْليف عَلى سُؤالِها:

- لي وَلَدٌ، غَيْرَ أَنَّ هَذا الشّابَّ لَيْسَ ابْني. . تَفَضَّلا إِلى بَيْتي، وَسَتَلْقَيانِ تَرْحيباً وَتَكْريماً. .

هَمَسْتُ بِأُذُنِ كاترين أَطْلُبُ مِنْها أَنْ تَرْفُضَ، لَكِنَّها لَمْ تَكْتَرِثْ لِحَديثي، وَراحَتْ تَرْكُضُ نَحْوَ البَيْتِ. فَقُلْتُ لِهيثْكْليف:

- إِنَّ عَمَلَكَ هَذا لَيْسَ لائِقاً يا مِسْتَر هيثْكْليف وَسَيَلومُني سَيِّدي عَلى هَذا العَمَلِ. فَأَجابَ:

- إِنَّ لِنْتونْ أَحْسَنُ حالاً الآنَ، وَأُريدُ أَنْ تَراهُ، إِنّي أَرْغَبُ أَنْ يَقَعا في حُبِّ بَعْضِهِما وَيَتَزَوَّجا يا نيلّلي.

- لَكِنَّ صِحَّةَ لِنْتونْ لَيْسَتْ عَلى ما يُرامُ، وَإِذا تُوُفِّيَ سَتُصْبِحُ كاتي وَريثَةً لِهَذا القَصْرِ.

- لَيْسَ هُنالِكَ تَرْتيبٌ مِنْ هَذا النَّوْعِ في الوَصيَّةِ. فَالمُمْتَلَكاتُ سَتُصْبِحُ لي.

وَدَخَلْنا البَيْتَ. . كانَ لِنْتون واقِفاً إِلى جانِبِ المِدْفَأَةِ، فَراحَتْ كاترين تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلى هيثْكْليف الَّذي كانَتِ الابْتِسامَةُ تَعْلو ثَغْرَهُ.

وَقَدِ اسْتَدارَ نَحْوَ كاتي وَقالَ:

- مَنْ هَذا؟ هَلْ عَرَفْتِهِ؟

وَنَظَرَتْ كاتي إِلَيْهِما بِريبَةٍ وَقالَتْ:

- هو ابْنُكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- يَبْدو أَنَّ ذاكِرَتَكِ ضَعيفَةٌ. وَأَنْتَ يا لِنْتونْ أَلا تَذْكُر ابْنَةَ خالِكَ، الَّتي كُنْتَ تَطْلُبُ مُقابَلَتَها؟

وَصَرَخَتْ كاتي بِفَرَحٍ:

- مَنْ؟ . . لِنْتون. . هَلْ أَنْتَ لِنْتون؟ . .

ثُمَّ قَفَزَتْ وَراحَتْ تُقَبِّلُهُ، وَهُما يَنْظُرانِ إِلى بَعْضِهِما بِاسْتِغْرابٍ، ثُمَّ اسْتَدارَتْ نَحْوَ هيثْكْليف وَقالَتْ: «أَأَنْتَ عَمّي؟».

- لا تُضَيِّعي قُبُلاتِكِ، يَجِبُ أَنْ أُعْلِمَكِ بِأَنَّ السَّيِّدَ والِدَكِ، مُتَآمِرٌ ضِدّي. وَإِذا أَخْبَرْتِهِ عَنْ زِيارَتِكِ هَذِهِ، فَإِنَّهُ سَيَمْنَعُكِ مِنَ المَجيءِ مَرَّةً أُخْرى.

وَسَأَلَتْهُ كاتي بِدَهْشَةٍ:

- ما هوَ سَبَبُ النِّزاعِ بَيْنَكُما؟ . .

- لَقَدْ رَفَضَ زَواجي مِنْ شَقيقَتِهِ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَظُنُّني مُعْدَماً. . وَعِنْدَما تَزَوَّجْتُها حَزِنَ كَثيراً.

- إِنَّ والِدي مُخْطِئٌ، وَسَأَقولُ لَهُ هَذا. أَمّا لِنْتون وَأَنا، فَلا عَلاقَةَ لَنا بِكُما، وَسَيَأْتي لِنْتون إِلى المَزْرَعَةِ.

وَهُنا قالَ لِنْتون:

- إِنَّ مَزْرَعَتَكُمْ بَعيدَةٌ، وَسَأَموتُ إِنْ قَطَعْتُ مَسافَةَ أَرْبَعَةِ أَمْيالٍ سَيْراً عَلى الأَقْدامِ. .

نَظَرَ هيثْكليف إلى لِنْتون بغَضَبٍ وَقالَ لَهُ:

ـ خُذْها إلى البُسْتانِ، وَأَطْلِعْها على أَمْرِكَ.

وَنَهَضَ هيثْكليف، وَنادى هاريتون، فَصَرَخَتْ كاتي قائِلَةً:

ـ إِنَّهُ لَيْسَ ابْنَ خالي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يا عَمّي؟.

ـ كَلّا، إِنَّهُ ابنُ أَخِ والِدَتِكَ، أَلا تُحِبّينَهُ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ هيثْكليف وَقالَ لِهاريتون:

ـ سَتَكونُ أَفْضَلَ شَخْصٍ بَيْنَنا يا هاريتون. رافِقِ الآنِسَةَ في جَوْلَةٍ حَوْلَ المَزْرَعَةِ؛ وَتَصَرَّفْ كَسَيِّدٍ. تَحَدَّثْ مَعَها بِهُدوءٍ وَيَداكَ خارِجَ جيوبِكَ.

وَهُنا شَعَرَ لِنْتون بِالأَسَفِ لِفَقْدِهِ هَذِهِ الفُرْصَةَ وانْطَلَقَ خارِجاً، وَهو يَنْظُرُ إلى هاريتون وَكاتي نَظْرَةَ غَضَبٍ وَحِقْدٍ..

۞ ۞ ۞

كانَ إِدْغارُ يَمْنَعُ كاتي مِنْ زِيارَةِ المُرْتَفَعاتِ.

أَمّا كاتي فَكانَتْ بِدَوْرِها تَطْلُبُ مِنْ والِدِها سَبَباً وَجيهاً لِهَذا التَّحْذيرِ. وَأَخيراً أَخْبَرَها إِدْغارُ عَنْ سوءِ مُعامَلَةِ هيثْكليف لِعَمَّتِها إيزابيلا.

وَهُنا تَغَيَّرَتْ نَظْرَةُ كاتي لِهيثْكليف، وانْصَرَفَتْ إلى مُتابَعَةِ دُروسِها. وَعِنْدَ المَساءِ ذَهَبَتْ كاتي إلى غُرْفَتِها، فَتَبِعْتُها، فَوَجَدْتُها جاثِيَةً إلى جانِبِ السَّريرِ وَهيَ تَبْكي. فَقُلْتُ لَها:

ـ مِنَ المُحْزِنِ أَنْ تَذْرِفَ عَيْناكِ دَمْعَةً واحِدَةً..

ـ إِنَّني أَبْكي مِنْ أَجْلِ لِنْتون؛ لِأَنَّهُ سَيَشْعُرُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ إِنْ لَمْ يَرَني مَرَّةً أُخرى.

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيَّ نَظْرَةً مُمْتَزِجَةً بِالكَراهِيَّةِ، فَتَرَكْتُها وَشَأْنَها.

وَلَكِنَّني شَعَرْتُ بِالأَسَفِ، فَعُدْتُ إلى غُرْفَتِها، وَرَأَيْتُها جالِسَةً عَلى الطّاوِلَةِ وَبِيَدِها وَرَقَةً وَقَلَماً. وَعِنْدَما رَأَتْني حاوَلَتْ إِخْفاءَهُما، فَقُلْتُ لَها:

ـ قَدْ لا تَجِدينَ مَنْ يوصِلُها لَهُ.

وانْصَرَفْتُ. وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي؛ أَسْرَعَتْ كاتي نَحْوَ المَطْبَخِ، حَيْثُ كانَ صَبِيٌّ يَمْلَأُ إِبْريقَنا حَليباً. وَهُنا رَأَيْتُها تَضَعُ في جَيْبِهِ وَرَقَةً، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ جَيْبِهِ الثّاني وَرَقَةً ثانِيَةً. تَبِعْتُهُ، وَنَجَحْتُ في اسْتِرْجاعِ الوَرَقَةِ مِنْهُ، وَرُحْتُ أَقْرَأُ كَلِماتِها.. وَبِالحَقيقَةِ كانَتْ رِسالَةً جَميلَةً لَكِنَّها سَخيفَةٌ. وَكانَ ذاكَ اليَوْمُ مُمْطِراً فَأَخَذَتْ كاتي تَرْسُمُ. وَفَجْأَةً صَرَخَتْ:

ـ آه.. رافِقيني يا نيلّلي إلى الطّابِقِ العُلْوِيِّ، إِنّي أَشْعُرُ بِالمَرَضِ.

نَفَّذْتُ أَمْرَها وَهَمَمْتُ بِالانْصِرافِ فاسْتَوْقَفَتْني قائِلَةً:

ـ لَقَدْ أَخَذْتِ الرَّسائِلَ مِنْهُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

أَرْجو مِنْكِ أَنْ تُعيديها لي، كَما أَرْجو أَنْ لا تُخْبِري والِدي بِشَيْءٍ. أَنا شِرّيرَةٌ يا نيلّلي، وَلَنْ أَعودَ إِلى مِثْلِ هَذا العَمَلِ مَرَّةً ثانِيَةً.

فَأَجَبْتُها:

ـ يَجِبُ أَنْ أُطْلِعَ والِدَكِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ.

راحَتْ كاتي تَسْتَعْطِفُني وَتَطْلُبُ مِنّي أَنْ أُحْرِقَ رِسالَتَها. أَمّا أَنا فَكُنْتُ أَعْمَلُ كُلَّ ما بِوِسْعي لِأَمْنَعَ نَفْسي عَنِ الضَّحِكِ، ثُمَّ قُلْتُ لَها:

ـ هَلْ تَعِدينَني بِأَنْ لا تَعودي إِلى مِثْلِ هَذا العَمَلِ مَرَّةً أُخْرى؟.

أَجابَتْني كاتي، وَهِيَ تَتَمَسَّكُ بِثِيابي:

ـ إِنَّني أَعِدُكِ بِذَلِكَ يا نيلّلي..

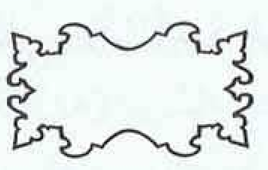
اقْتَرَبْتُ مِنَ المِدْفَأَةِ لِأُحْرِقَ الرَّسائِلَ وَأَنا أَشْعُرُ بِأَنَّ تَضْحِيَتَها كَبيرَةٌ، وَراحَتْ تَرْجوني بَأَنْ أُبْقِيَ رِسالَةً لِلذِّكْرى، لَكِنَّني لَمْ أَكْتَرِثْ لِطَلَبِها. فَصَرَخَتْ وَهِيَ تَضَعُ يَدَها في النّارِ:

ـ أُريدُ أَنْ أَحْتَفِظَ بِرِسالَةٍ فَقَطْ، أَيَّتُها الظّالِمَةِ! وَهُنا قُلْتُ لَها:

ـ حَسَناً يا كاتي.. سَأُعْطي والِدَكِ رِسالَةَ لِنْتون.

عِنْدَئِذٍ، تَراجَعَتْ كاتي، مِنْ دونِ أَنْ تَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ، ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلى غُرْفَتِها. أَمّا أَنا فَإِنَّني نَزَلْتُ لِأُطَمْئِنَ إِدْغار عَلى صِحَّتِها.

ثُمَّ بَدَأْتُ بِكِتابَةِ رِسالَةٍ لِلنْتونْ رَدًّا عَلى رِسالَتِهِ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَكُفَّ عَنْ مُكاتَبَةِ كاتي..



لنتون المريض وزواجه القسري

انْقَطَعَ لِنْتون عَنْ مُراسَلَتِها، وَفي آخِرِ أَيّامِ الصَّيفِ، عادَ سَيِّدي في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَلازَمَ البَيْتَ لِإِصابَتِهِ بِنَزْلَةٍ صَدْرِيَّةٍ شَديدَةٍ.

كانَ الطَّقسُ مُمْطِراً، وَأَصَرَّتْ كاتي عَلى الخُروجِ مَعي. لَبِسْتُ مِعْطَفي، وَتَوَجَّهْنا نَحْوَ البابِ المُؤَدّي إِلى المُرْتَفَعاتِ. وَقَدْ بَدا السُّرورُ مُرْتَسِماً عَلى وَجْهِ كاتي، فَتَسَلَّقَتِ الجِدارَ، وَراحَتْ تَلْتَقِطُ التوتَ الأَحْمَرَ. وَقَدْ سَقَطَتْ قُبَّعَتُها خارِجَ السّورِ، فَقَفَزَتْ لِتُحْضِرَها. أَمّا العَوْدَةُ لِداخِلِ القَصْرِ، فَكانَتْ صَعْبَةً؛ لِأَنَّ أَحْجارَ السّورِ كانَتْ مَلْساءَ، وَراحَتْ كاتي تَضْحَكُ وَتَقولُ:

- عَلَيْكِ يا نيلّلي أَنْ تُحْضِري المُفْتاحَ. فَأَجَبْتُها:

- ابْقِ مَكانَكِ، فَلَرُبَّما أَسْتَطيعُ فَتْحَ البابِ بِإِحْدى هَذِهِ المَفاتيحِ المَوْجودَةِ مَعي..

وَبَيْنَما كُنْتُ أُحاوِلُ فَتْحَ البابِ، سَمِعْتُ كاتي تَحُثُّني عَلى الإِسْراعِ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتاً يَقولُ:

- إِنَّني مَسْرورٌ بِلِقائِكِ يا كاتي، وَأَوَدُّ أَنْ أَسْتَفْسِرَ عَنْ شَيْءٍ.

- وَقاطَعَتْهُ كاتي قائِلَةً:

- إِنَّني لا أُريدُ التَّحَدُّثَ مَعَكَ يا مِسْتَر هيثْكْليف لِأَنَّ والِدي قالَ بِأَنَّكَ رَجُلٌ شِرّيرٌ، وَأَنَّكَ تَكْرَهُنا نَحْنُ الاثْنَيْنِ، وَهَذا ما قالَتْهُ نيلّلي أَيْضاً.

- إِنَّ حَديثَكِ هَذا لا يَهُمُّني.. لَقَدْ جِئْتُ مِنْ أَجْلِ وَلَدي. تَذَكَّري جَيِّداً يا كاتي رَسائِلَكِ لِلِنْتون.. أَنا أَحْتَفِظُ بِهَذِهِ الرَّسائِلِ جَميعَها، فَإِنْ لَمْ تَسْتَجيبي لي عِنْدَئِذٍ سَأُطْلِعُ والِدَكِ عَلى كُلِّ

شَيْءٍ. هَلْ مَلَلْتِ لِنْتون؟ إِنَّهُ يَموتُ حُبّاً بِكِ، وَتَسوءُ صِحَّتُهُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ. فَإِنْ لَمْ تُقَدِّمي لَهُ يَدَ المُساعَدَةِ، فَإِنَّهُ سَيَموتُ قَبْلَ حُلولِ فَصْلِ الصَّيْفِ.

لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ سَماعَ تَهْديداتِ هيثْكْليف، فَصَرَخْتُ قائِلَةً:

- كَيْفَ تَكْذِبُ عَلى هَذِهِ المِسْكينَةِ مِن دونِ أَنْ يَرْدَعَكَ ضَميرُكَ؟ سَأَكْسِرُ البابَ وَآتي إِلَيْكِ يا كاتي.. لا تُصَدِّقي أَقْوالَهُ..

- فَرَدَّ هيثْكْليف:

- سَأَغيبُ لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ عَنِ البَيْتِ، يُمْكِنُكِ يا كاتي أَنْ تَذْهَبي إِلى هُناكَ، وَتَتَأَكَّدي مِنْ صِدْقِ قَوْلي.

كانَ لِكَلامِ هيثْكْليف تَأْثيرٌ كَبيرٌ عَلى كاتي، وَلَمْ يَعُدْ حَديثي مُجْدِياً. فَفي اليَوْمِ التّالي تَوَجَّهْتُ مَعَ كاتي إِلى المُرْتَفَعاتِ عَلى أَمَلِ أَنْ يَنْقُدُ لِنْتون كَلامَ أَبيهِ.

دَخَلْنا المَزْرَعَةَ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدْنا مِنْ عَدَمِ وُجودِ هيثْكْليف. كانَ يوسُفُ يَجْلِسُ وَحيداً قُرْبَ المِدْفَأَةِ يَسْتَمْتِعُ بِالدِّفْءِ، وَسَمِعْنا صَوْتاً مِنَ الدّاخِلِ يُنادي يوسُفَ، غَيْرَ أَنَّ يوسُفَ لَمْ يُبْدِ أَيَّ اهْتِمامٍ. عِلْماً بِأَنَّنا تَأَكَّدْنا أَنَّهُ صَوْتُ لِنْتون، فَأَسْرَعْنا إِلَيْهِ. وَرَفَعَتْ كاتي رَأْسَهُ بِيَدَيْها، وَعِنْدَما رَآها، قالَ:

- أَهَذِهِ أَنْتِ يا كاتي، أَغْلِقي البابَ مِنْ فَضْلِكِ، إِنَّ الطَّقْسَ بارِدٌ، وَهَؤُلاءِ الأَوْغادُ[١] يَرْفُضونَ إِحْضارَ الفَحْمِ لِلْمِدْفَأَةِ.

(١) الأوغاد: الأشرار.

كانْ لِنْتون يَسْعُلُ سُعالاً شَديداً، وَبَدَتْ عَلَيْهِ الحُمّى، فَقالَتْ لَهُ كاتي:

- حَسَناً، يا لِنْتون، هَلْ أَنْتَ مَسْرورٌ بِرُؤْيَتي؟

- كانَ مِنَ الواجِبِ عَلَيْكِ أَنْ تَأْتي قَبْلَ الآنَ! إِنَّ كِتابَةَ الرَّسائِلِ أَتْعَبَتْني كَثيراً، وَها أَنَذا لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ الكِتابَةَ، وحَتّى الكَلامَ. . أَيْنَ زيلّلا الآنَ؟

أَجَبْتُهُ بِدَوْري:

- لَيْسَ هُنا أَحَدٌ غَيْرُ يوسُفَ يا لِنْتون!

- أُريدُ أَنْ أَشْرَبَ. ذَهَبَتْ زيلّلا إِلى جيمِرْتون، مُنْذُ خُروجِ والِدي مِنَ البَيْتِ، إِنَّهُمْ يَتَظاهَرونَ بِعَدَمِ سَماعِهِمْ مُناداتي. .

أَحْضَرَتْ لَهُ كاتي قَدَحَ ماءٍ، فَطَلَبَ مِنْها أَنْ تُضيفَ مِلْعَقَةَ خَمْرٍ فيهِ، فَفَعَلَتْ ثُمَّ أَعادَتْ سُؤالَها:

- هَلْ أَنْتَ مَسْرورٌ بِرُؤْيَتي؟

- نَعَمْ، وَلَكِنَّ عَدَمَ حُضورِكِ في الوَقْتِ المُناسِبِ أَزْعَجَني، وَخاصَّةً لِأَنَّ والِدي كانَ يَشْتُمُني وَيَقولُ: «أَنْتَ لا تَنْفَعُ لِشَيْءٍ يا لِنْتون، فَلَوْ كُنْتُ مَكانَكَ، لَأَصْبَحْتُ سَيِّدَ مَزْرَعَةِ إِدْغار».

- وَقالَتْ كاتي:

- كَمْ أَتمنى لَوْ تَكونُ أَخي! إِنَّني لا أَسْتَطيعُ المَجيءَ إِلى هُنا بِحُضورِ والِدِكَ.

- لَقَدْ قالَ أَبي بِأَنَّ حُبَّكِ سَيَكونُ أَعْظَمَ لَوْ كُنْتِ زَوْجَتي يا كاتي.

- النّاسُ يَكْرَهونَ أَزْواجَهُمْ أَحْياناً، لَكِنَّهُمْ لا يَكْرَهونَ إِخْوَتَهُم. . إِنَّ والِدَكَ يَكْرَهُ زَوْجَتَهُ و. . .

حاوَلْتُ أَنْ أَضَعَ حَدًّا لِحَديثِها، لَكِنَّها كَشَفَتْ لَهُ عَنْ كُلِّ ما تَعْلَمُهُ. فَأَجابَها:

- إِنَّ والِدَكِ يَحْتَقِرُ أَبي.

قالَتْ:

- إِنَّ والِدَكَ رَجُلٌ شِرّيرٌ.

- وَهُنا غَضِبَ لِنْتون وَقالَ:

- إِنَّ والِدَتَكِ تُحِبُّ والِدي وَتَكْرَهُ والِدَكِ.

وَصَرَخَتْ كاتي:

- هَذا افْتِراءٌ يا لِنْتون. . وَأَنا أَكْرَهُكَ الآنَ. .

وَأَصابَني الخَوْفُ عِنْدَما أَخَذَ لِنْتون بِالسُّعالِ الشَّديدِ. أَمّا كاتي فَأَخَذَتْ تَبْكي بِمَرارَةٍ ثُمَّ قالَتْ:

- أَنا آسِفَةٌ عَلى كُلِّ ما حَدَثَ يا لِنْتون. .

- لَمْ أَعُدْ أُريدُ التَّحَدُّثَ مَعَكِ، لَقَدْ أَزْعَجْتِني كَثيراً. . .

- قالَ ذَلِكَ وَأَخَذَ يَبْكي. . فَسَأَلَتْهُ كاتي:

- هَلْ تُريدُ أَنْ أَذْهَبَ؟

- نَعَمْ، دَعيني وَحْدي واذْهَبي. .

وَما إِنْ اتَّجَهْنا نَحْوَ بابِ الغُرْفَةِ، حَتّى سَمِعْنا صَرْخَةً قَوِيَّةً، فَعُدْنا بِسُرْعَةٍ وَإِذْ بِلِنْتون قَدْ وَقَعَ عَلى الأَرْضِ وَراحَ يَتَلَوّى أَلَماً.

كاتي في قصر وذرينغ

حَملْناهُ إلى سَريرِهِ ثُمَّ مَشَيْنا. وَقُلْتُ:

ـ أرْجو أنْ تكوني قَدْ اقْتنَعْتِ بِأنَّكِ لَنْ تُساعِديهِ بِشَيْءٍ. لَكِنَّها اقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَوَضَعَتْ مِخَدَّةً تَحتَ رأْسِهِ. وَهُنا أَمْسَكَ بِثَوْبِها وَسَأَلَها عَمّا إذا كانَتْ سَتعودُ لِزيارَتِهِ في الغَدْ، ثُمَّ وَدَّعَتْهُ وانْصَرَفْنا. وَقَدْ اسْتَوْقَفْتُ كاترين وَقُلْتُ لها:

ـ هَلْ سَتَحْضُرينَ ثانيَةً إلى هَذا المَكانِ؟

ـ سَيَكونُ شِفاءُ لِنْتون أَسْرَعَ إذا اعْتَنَيْتُ بِهِ أنا..

ـ لَكِنْ.. اسْمَعي يا كاتي، إذا حاوَلْتِ أَنْ تَذْهَبي إلى المُرْتَفَعاتِ، سَأُخْبِرُ والِدَكِ بِذَلِكَ.

أَقْبَلَ الصَّيْفُ وَلَمْ يَكُنْ سَيِّدي قَدْ اسْتَعادَ قواهُ وَنَشاطَهُ، وَكانَ يَقومُ بِجَوْلاتٍ قَصيرَةٍ حَوْلَ أَراضيهِ بِرِفْقَةِ ابْنَتِه. وَذاتَ يَوْمٍ بَيْنَما كانا يَقومانِ بِجَوْلَتِهِما لَمَحا لِنْتون مُسْتَلْقِياً على الأَرْضِ يَنْتَظِرُ حُضورَنا، وَعِنْدَما رَآنا نَظَرَ إلَيْنا بِوَجْهٍ شاحِبٍ. وَراحَتْ كاتي تَسْأَلُهُ عَنْ صِحَّتِهِ فَأَجابَها وَهو يَلْهَثُ وَأَطْرافُهُ تَرْتَجِفُ بِأَنَّهُ في حالَةٍ أَفْضَل.

ـ وَقالَتْ لَهُ كاتي:

ـ لَكِنَّني أَرى عَكْسَ ذَلِكَ..

ـ بَلى، أنا أَشْعُرُ بِالتَّعَبِ، وَحَرارَةُ الطَّقْسِ تُؤَثِّرُ فيَّ، فَدَعينا نَسْتَريحُ قَليلاً..

جَلَسَتْ كاتي إلى جانِبِهِ تُحَدِّثُهُ، وَلَكِنْ عَدَمَ اهْتِمامِهِ بِحَديثِها

وعدَم مَقْدِرَتِهِ على تَسْلِيَتِها، سَبَّبَ لَها خَيْبَةَ أَملٍ. فَلَقَدْ أَصْبَحَ ضَعيفاً كَئيباً، وَكَأَنَّ هَذا المَوْعِدَ كانَ بِمَثابَةِ عِقابٍ بَدَلاً مِنْ أَنْ يَكونَ مُتْعَةً لَهُ. وَأَخيراً قَرَّرَتْ كاتي الرَّحيلَ.

وَقَدْ حَزِنَ لِنْتون لِاقْتِراحِ كاتْرين، وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلى المُرْتَفَعاتِ، وَطَلَبَ مِنْها أَنْ تَبْقى مَعَهُ نِصْفَ ساعَةٍ أُخْرى. فَقالَتْ:

ـ أَلَم يَزَلْ والِدُكَ يُعامِلُكَ بِقَسْوَةٍ؟

لَمْ يَرُدَّ لِسُؤالِها جَواباً، وَبَدا الإِرْهاقُ والأَلَمُ عَلى وَجْهِهِ، وَما لَبِثَ رَأْسُهُ أَنْ انْحَنى فَوْقَ صَدْرِهِ. وَهُنا قالَتْ كاتي:

ـ لِماذا يَطْلُبُ رُؤْيَتي؟ لَرُبَّما والِدُهُ يُرْغِمُهُ عَلى ذَلِكَ..

فَأَفاقَ لِنْتون مِنْ غَفْوَتِهِ وَقالَ:

ـ اصْمِتا.. فَأَنا أَسْمَعُ صَوْتَ والِدي..

وَأَمْسَكَ بِذِراعِ كاتي، لَكِنَّها تَخَلَّصَتْ مِنْهُ، وَأَحْضَرَتْ جَوادَها، وَصَرَخَتْ وَهِيَ تَمْتَطيهِ: «إِلى اللِّقاءِ في الخَميسِ المُقْبِلِ».

❁ ❁ ❁

كانَتْ صِحَّةُ السَّيِّدِ إِدْغارَ تَتَدَهْوَرُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وَكُنّا نُحاوِلُ أَنْ نُخْفي حَقيقَةَ مَرَضِ والِدِها عَنْها، وَهِيَ بِنَفْسِها لَمْ تَعُدْ تَطْلُبُ مِنْ والِدِها السَّماحَ لَها بِمُقابَلَةِ لِنْتون. أَمّا أَنا فَكُنْتُ أُجْهِدُ نَفْسي لِأُبْعِدَها عَنْ غُرْفَةِ إِدْغارَ، الَّتي سَبَّبَتْ لَها الحُزْنَ، كَما كانَ إِدْغار بِنَفْسِهِ يُبْعِدُها عَنْهُ لِتُرَفِّهَ عَنْ نَفْسِها.

تَوَجَّهْتُ مَعَ كاتي إِلى المَكانِ السّابِقِ، حَيْثُ كانَ لِنْتون بِانْتِظارِنا، فَقالَ:

ـ لَقَدْ تَأَخَّرْتُما.. هَلْ والِدُكِ بِحالَةٍ خَطِرَةٍ؟. لَقَدِ اعْتَقَدْتُ بِأَنَّكِ لَنْ تَأْتي.

ـ فَأَجابَتْهُ كاتي بِحُزْنٍ:

ـ نَعَمْ، إِنَّ والِدي مَريضٌ جِدّاً. وَبِما أَنَّكَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، فَلِماذا لَمْ تُحِلَّني مِنْ وَعْدي؟..

عِنْدَ ذَلِكَ نَظَرَ إِلَيْها لِنْتونْ بِخَجَلٍ وَقالَ:

ـ بِحَقِّ السَّماءِ، لا تَنْظُري إِلَيَّ بِغَضَبٍ، فَأَنا جَبانٌ حَقيرٌ، وَلا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَحَمَّلَ غَضَبَكِ، اكْرَهي والِدي إِنْ شِئْتِ، وَلَكِنْ، اعْفي عَنّي.

ـ وَرَمى لِنْتون بِنَفْسِهِ عَلى الأَرْضِ والدُّموعُ تَنْهَمِرُ مَنْ عَيْنَيْهِ وَهوَ يَقولُ:

ـ آهٍ يا كاتي، أَنا ضَعيفٌ، وَلا أَقْدِرُ أَنْ أَبوحَ لَكِ بِشَيْءٍ الآنَ!.. إِنَّ حَياتي بَيْنَ يَدَيْكِ، أَرْجوكِ أَنْ توافِقي...

فَتَأَثَّرَتْ كاتي وانْحَنَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ تَقولُ:

ـ عَلى ماذا أوافِقُ؟ قُلْ لي ماذا تَعْني بِحَديثِكَ؟.. اعْتَرِفْ لي بِما يُثْقِلُ ضَميرَكَ..

وَصَرَخَ لِنْتون:

ـ لا أَجْرُؤُ عَلى قَوْلِ الحَقيقَةِ؛ لِأَنَّ والِدي هَدَّدَني.

ـ احْتَفِظْ إِذَنْ بِسِرِّكَ، فَأَنا لَسْتُ خائِفَةً.

وَسَمِعْتُ خُطواتٍ تَقْتَرِبُ، وَرَأَيْتُ هيثكْليف يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيُحَدِّثُني بِوِدٍّ قائِلاً:

- كَيْفَ الحالُ في المَزْرَعَةِ؟ . . لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ إِدْغار يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ الأَخيرَةَ . . هَلْ هَذا الخَبَرُ صَحيحٌ؟ . .

- نَعَمْ، إِنَّ سَيِّدي يُحْتَضَرُ . .

- إِنَّ هَذا الغُلامَ لا يُعْجِبُني، وَأُقَدِّمُ شُكْري لِخالِهِ إِنْ فارَقَ الحَياةَ قَبْلَهُ.

فَقُلْتُ:

- مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ يَكونَ هَذا الصَّبِيُّ تَحْتَ إِشْرافِ الطَّبيبِ، بَدَلاً مِنْ أَنْ يَكونَ هُنا.

ثُمَّ قالَ يُحَدِّثُ كاتي:

- إِنَّني أُعامِلُهُ بِقَسْوَةٍ، لِكَي أُثيرَ الخَوْفَ فيهِ، فَأَرْجوكِ أَنْ تُرافِقيهِ إِلى البَيْتِ . .

- إِنَّ والِدي مَنَعَني مِنَ الذَّهابِ إِلى المُرْتَفَعاتِ.

عِنْدَئِذٍ قالَ هيثْكْليف لِابْنِهِ:

- قُمْ إِذَنْ، يَجِبُ أَنْ نَحْتَرِمَ تَمَسُّكَ كاتي بِطاعَتِها لِوالِدِها. أَلا تَرْغَبُ في مُرافَقَتي إِلى البَيْتِ؟

وَتَقَدَّمَ هيثْكْليف لِيُمْسِكَ بِيَدِ الغُلامِ، لَكِنَّ لِنْتون تَراجَعَ وَتَمَسَّكَ بِكاتي، وَراحَ يَطْلُبُ مِنْها مُتَوَسِّلاً أَنْ تَأْخُذَهُ إِلى البَيْتِ، مِنْ دونِ أَنْ تَعْرِفَ سَبَبَ خَوْفِهِ.

وافَقْتُ عَلى مُرافَقَتِهِ، وَما إِنْ دَخَلْنا البَيْتَ حَتّى دَفَعَني هَيْثْكْليف إِلى الأَمامِ، وَأَغْلَقَ البابَ، ثُمَّ قالَ:

- لَيْسَ في البَيْتِ أَحَدٌ سِوايَ، وَسَوْفَ نَشْرَبُ الشّايَ مَعاً، وَأَنْتِ يا كاتي: إِنَّني أَهَبُكِ كُلَّ ما أَمْلِكُهُ رَغْمَ أَنَّ لِنْتون لا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، خُذي كُرْسِيّاً واجْلِسي إِلى جانِبِهِ.

تَقَدَّمَتْ كاتي مِنْ هيثْكْليف وَعَيْناها تَقْدَحانِ شَرّاً، وَقالَتْ لَهُ:

- أَنا لا أَخافُكَ! . . أَعْطيني المُفْتاحَ. إِنَّني لَنْ آكُلَ وَلَنْ أَشْرَبَ في بَيْتِكَ حَتّى لَوْ مُتُّ مِنْ جوعي . .

دُهِشَ هيثْكْليف مِنْ جُرْأَتِها وَبِخاصَّةٍ عِنْدَما حاوَلَتْ أَنْ تَسْتَوْلِيَ عَلى المِفْتاحِ، وَقالَ لَها:

- إِنْ لَمْ تَتَوَقَّفي عَنْ مُحاوَلاتِكِ هَذِهِ، فَإِنّي سَأُعْطيكِ دَرْساً لَنْ تَنْسيهِ أَبَداً . .

وَلَمْ تَكْتَرِثْ كاتي لِتَهْديداتِهِ بَلْ أَمْسَكَتْ يَدَهُ وَغَرَزَتْ أَظافِرَها فيها، ثُمَّ اسْتَخْدَمَتْ أَسْنانَها. وَهُنا لَطَمَها هيثْكْليف عِدَّةَ لَطَماتٍ عَلى وَجْهِها. وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَمالَكَ نَفْسي فَقُلْتُ لَهُ:

- إِنَّكَ نَذْلٌ وَجَبانٌ.

وَلَمْ يُجِبْ هيثْكْليف بَلْ قالَ مُحَدِّثاً كاتي:

- اذْهَبي الآنَ يا كاتي، سَوْفَ أُصْبِحُ والِدَكِ في الغَدِ، وَسَتَنالينَ الكَثيرَ مِنْ مُعامَلَتي هَذِهِ.

فَنَظَرَتْ إِلَيَّ كاتي وَراحَتْ تَبْكي، أَمّا هيثْكْليف، فَقَدْ خَرَجَ لِلْبَحْثِ عَنْ جِيادِنا. وَرُحْنا نَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ لَنا فَلَمْ نُوَفَّقْ. وَهُنا قالَتْ كاتي لِلِنْتون:

- عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَني بِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَدْ حَضَرْتُ إِلى هُنا مِنْ أَجْلِكَ.

- إنَّ والِدي يَرْغَبُ في زَواجِنا، وَيَخْشى أَنْ أَموتَ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ. إِذَنْ، يَجِبُ أَنْ تُمْضي هَذِهِ اللَّيْلَةَ هُنا، وَفي صَباحِ الغَدِ يَتِمُّ زَواجُنا يا كاتي.

- وَصَرَخْتُ قائِلَةً لَهُ:

- هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ فَتاةً جَميلَةً مِثْلَها توافِقُ عَلى الزَّواجِ مِنْ غَبِيٍّ مِثْلِكَ؟ . .

- لَكِنَّ لِنتون وَجَّهَ حَديثَهُ لِكاتي قائِلاً:

- أَلا تَتزَوَّجينَني يا كاتي؟ . . أَرْجوكِ أَنْ تَرْضَخي لِرَغْبَةِ والِدي وَتُنْقِذيني مِنْ هَذا الوَضْعِ المُؤْلِمِ . . .

- وَهُنا عادَ هيثْكْليف، وَراحَ يَنْظُرُ إِلى كاتي نَظَراتٍ مَلْؤُها الحِقْدُ وَقالَ:

- إِنَّكِ لا تَخافينَ مِنّي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- بَلى إِنَّني خائِفَةٌ الآنَ، فَإِنْ بَقيتُ هُنا، سَأَكونُ مَصْدَرَ حُزْنٍ لِوالِدي. دَعْني أَذْهَبُ، وَأَعِدُكَ بِأَنَّني سَأَتَزَوَّجُ لِنْتون. إِنَّكَ تُرْغِمُني عَلى شَيْءٍ أَنا أَرْغَبُ القِيامَ بِهِ بِمَحْضِ إِرادَتي.

- وَعِنْدَئِذٍ صَرَخْتُ:

- إِنَّ القانونَ سَيَجْعَلُ حَدّاً لِتَصَرُّفاتِ هيثْكْليف.

فَأَجابَني هيثْكْليف:

- اسْكُتي يا نيلّلي. وَأَنْتِ يا كاتي، إِنَّهُ لَيَسُرُّني أَنْ أَرى والِدَكِ حَزيناً، وَلَنْ أَسْمَحَ لَكِ بِمُغادَرَةِ هَذا البَيْتِ ما لَمْ يَتِمَّ الزَّواجُ بَيْنَكُما.

- فَقالَتْ لَهُ كاتي:

- دَعْ نيلّلي تَذْهَبُ، لِتُطَمْئِنَ والِدي عَنّي . .

- لا، أَبَداً . . لَقَدْ دَخَلْتُما هَذا البَيْتَ بِمَحْضِ إِرادَتِكُما، ابْكي . . فَبُكائُكِ لا يَهُمُّني . .

وَقالَتْ كاتي وَهيَ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ:

- أَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَني أَعودُ إِلى بَيْتي الآنَ.

فَرَكَلَها هيثْكْليف وَهوَ يَنْظُرُ إِلَيْها بِاشْمِئْزازٍ. وَهُنا سَمِعْنا أَصْواتاً في الخارِجِ، وَأَسْرَعَ هيثْكْليف لِيَسْتَطْلِعَ الخَبَرَ، وَأَخْبَرَنا أَنَّ ثَلاثَةً مِنْ خَدَمِ مَزْرَعَتِنا قَدْ حَضَروا لِمُرافَقَتِنا في طَريقِ العَوْدَةِ.

غابَتِ الشَّمْسُ، وَأَمَرَنا هيثْكْليف أَنْ نَصْعَدَ لِلنَّدْمِ في غُرْفَةِ زيلّلا.

لَمْ يَغْمِضْ لَنا جَفْنٌ طَوالَ اللَّيْلَةِ، وَما أَنْ لاحَ الصَّباحُ حَتّى جاءَ هيثْكْليفُ، وَأَخَذَ كاتي، ثُمَّ أَقْفَلَ البابَ، وَأَبْقاني مَسْجونَةً أَرْبَعَةَ أَيّامٍ لَمْ أَرَ خِلالَها سِوى هاريتون، الَّذي كانَ يُحْضِرُ لي الطَّعامَ. وَقَدْ فَشِلْتُ في اسْتِدْرارِ عَطْفِهِ، إِذْ كانَ لا يَسْمَعُ تَوَسُّلاتي.

- وَفي صَباحِ اليَوْمِ الخامِسِ مِنْ سَجْني، دَخَلَتْ زيلّلا وَصَرَخَتْ قائِلَةً:

- آه يا عَزيزَتي مِسز دين . . أَأَنْتِ هُنا؟ إِنَّ النّاسَ في جيمِرْتون يَقولونَ أَنَّكِ غَرِقْتِ في أَحَدِ المُسْتَنْقَعاتِ مَعَ الآنِسَةِ كاتي، لَكِنَّ سَيِّدي هيثْكْليف أَخْبَرَني بِأَنَّكِ مَحْجوزَةٌ عِنْدَهُ نَتيجَةَ

إصابتِكِ بِصَدْمةٍ عَنيفةٍ جعلَتْكِ تقومين بتصرُّفاتٍ غريبةٍ:

- إنَّ سَيِّدَكِ وَغْدٌ ولَئيمٌ، هَلِ المِستر إدغار ما زالَ حَيّاً؟

- نَعَمْ، والطَّبيبُ يقولُ إنَّهُ سَيعيشُ يَوْماً آخرَ. إلى أيْنَ أنْتِ ذاهِبَةٌ يا مِسزّ دين؟

لَمْ أَسْتَمِعْ إلى ثَرْثَرَتِها، بَلْ أَسْرَعْتُ في الهُبوطِ، وَلَمْ أَجِدْ مَنْ يُخْبِرُني عَنْ مَكانِ كاتي. وَهَنا لَمَحْتُ لِنْتون جالِساً يَمْتَصُّ قِطْعَةً مِنَ السُّكرِ، فَقُلْتُ لَهُ:

- أَيْنَ كاتي؟ أَجِبْني حالاً..

- إنَّها في الطّابِقِ العُلْوي، ولنْ نَسْمَحَ لَها بالذَّهابِ، وَقَدْ طَلَبَ مِنّي والِدي أَنْ لا أَكونَ لَطيفاً مَعَها إذْ إنَّها أَصْبَحَتْ زَوْجَتي، وَمِنَ العارِ أَنْ تَتْرُكَني..

- هَلْ نَسيتَ لُطْفَها وَمَحَبَّتَها لَكَ؟ هَلْ نَسيتَ زياراتِها لَكَ؟ الآنَ تُصَدِّقُ والِدَكَ وَتَنْضَمُّ إلَيْهِ ضِدَّها؟

- لَيسَ بِوِسْعي أنْ أَحْتَمِلَ صُراخَها في النَّهارِ وَأَنينَها في اللَّيْلِ..

- هَلْ والِدُكَ في الخارِجِ؟

- إنَّهُ في الفَناءِ، يَتَحَدَّثُ مَعَ الطَّبيبِ الَّذي يَقولُ بِأَنَّ خالي يُحْتَضَرُ. إنَّني سَعيدٌ بِهذا النَّبإِ، لِأَنَّني بَعْدَ مُدَّةٍ وَجيزةٍ، سَأَكونُ سَيِّدَ مَزْرَعَةِ ثْراشِ كروس. إنَّ كاتي عَرَضَتْ عَلَيَّ أَشْياءَ كَثيرةً مُقابِلَ إطْلاقِ سَراحِها، وَلَكِنَّني صَرَّحْتُ لَها أَنَّ كُلَّ ما تَعِدُني بِهِ قَدْ أَصْبَحَ مُلْكي، وَعِنْدَ ذلِكَ غَضِبَتْ وَرَمَتْني أَرْضاً. وَلَمّا حَضَرَ والِدي، أَشْبَعَها ضَرْباً.

- وَهَلْ بِاسْتِطاعَتِكَ الحُصولُ عَلى المُفْتاحِ؟

- نَعَمْ، عِنْدَما أَكونُ في الطّابِقِ العُلْوي. أَمّا الآنَ، فَإنَّني غَيْرُ قادِرٍ عَلى السَّيْرِ، وَلا يُمْكِنُني أَنْ أُخْبِرَكِ عَنْ مَكانِ وُجودِ المِفْتاحِ، فَهَذا سِرٌّ مِنْ أَسْرارِنا..

غادَرْتُ البَيْتَ مُسْرِعَةً، وَما إنْ أَصْبَحْتُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ بَيْتِنا، حَتّى هُرِعَ الخَدَمُ فَرِحينَ لِرُؤْيَتي بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى غُرْفَةِ سَيِّدي، وَكانَ مُسْتَلْقِياً في فِراشِهِ، نَحيلَ الجِسْمِ، يُرَدِّدُ: كاتي.. كاتي..

وَهَمَسْتُ في أُذُنِهِ قائِلَةً:

- إنَّ كاتي بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، وَسَتَأْتي بَعْدَ قَليلٍ..

دُهِشَ إدْغارَ مِنْ كَلامي، وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أُخْبِرَهُ عَمّا حَدَثَ مَعَنا، فَشَرَحْتُ لَهُ نَوايا هيثْكْليف. وَشَعَرَ عِنْدَئِذٍ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُعَدِّلَ وَصِيَّتَهُ بِحَيْثُ يَأْتَمِنُ المالَ عِنْدَ بَعْضِ الأَشْخاصِ الشُّرَفاءِ. وَبِذَلِكَ يَكونُ قَدْ أَمَّنَ حَياةَ ابْنَتِهِ إلى الأَبَدِ، كَمّا يَمْنَعُ هيثْكْليف مِنَ الاسْتيلاءِ عَلى مالِهِ بَعْدَ وَفاتِهِ.

أَرْسَلْتُ أَحَدَ الخَدَمِ لِاسْتِدْعاءِ المُحامي، وَجَهَّزْتُ أَرْبَعَةً مِنَ الخَدَمِ مُسَلَّحينَ لِلذَّهابِ إلى المُرْتَفَعاتِ وَإعادَةِ كاتي إلى بَيْتِها.

وَعادَ الخادِمُ وَحْدَهُ لِأَنَّ المُحامِيَ كانَ في القَرْيَةِ، أَمّا الرِّجالُ الأَرْبَعَةُ المُسَلَّحونَ فَقَدْ قالوا: «إنَّ كاتي مَريضَةٌ وَلَيْسَ بِإمْكانِها مُغادَرَةُ غُرْفَتِها».

وَفي السّاعَةِ الثّالِثَةِ صَباحاً، وَبَيْنَما كُنْتُ أَسْتَعِدُّ لِلذَّهابِ إلى

المُرْتَفعاتِ، سَمِعْتُ طَرَقاتٍ مُتَتاليَةٍ. أَسْرَعْتُ، وَإذا بِكاتي تَهْجُمُ عَلَيَّ، وَتُعانِقُني، وَهيَ تَبْكي مِنْ فَرَحِها وَتَقولُ:

ـ نيلّلي.. نيلّلي هَلْ والِدي بِخَيْرٍ؟

ثُمَّ أَسْرَعَتْ إلى غُرْفَةِ والِدِها. وَبَعْدَ لَحَظاتٍ تَبِعْتُها فَرَأَيْتُها ما زالَتْ تُعانِقُهُ. أَمّا إِدْغار، رَحِمَهُ اللهُ، فَكانَ وَجْهُهُ شاحِباً وَذِراعاهُ ما زالَتا تُحيطانِ بِكاتي..

وَماتَ. وَفي مَساءِ اليَوْمِ التّالي لِلْدَّفْنِ جَلَسْتُ مَعَ سَيِّدَتي الصَّغيرَةِ، وَراحَتْ تُحَدِّثُني عَنْ طَريقَةِ هَرَبِها مِنَ المُرْتَفَعاتِ، وَتَمَنَّيْنا أَنْ نَبْقى في المَزْرَعَةِ وَخاصَّةً إذْ إِنَّ لِنْتون ما زالَ حَيّاً.

وَفَجأَةً، دَخَلَ هيثْكْليف بِوَجْهِهِ العابِسِ، فَنَهَضَتْ كاتي مُحاوِلَةً الهَرَبَ، فَقالَ لَها:

ـ قِفي. لا فِرارَ بَعْدَ اليَوْمِ... إِنَّني حَضَرْتُ لِمُرافَقَتِكِ إلى البَيْتِ، وَآمُلُ أَنْ تَكوني مُطيعَةً..

وَسَأَلْتُهُ:

ـ لِماذا لا تَتْرُكَ كاتي هُنا، فَتَعيشُ مَعَ زَوْجِها؟

ـ سَأَعْرِضُ هٰذِهِ المَزْرَعَةِ لِلإيجار، كَما أَنَّ هَذِهِ الفَتاةُ مَدينَةٌ لي بِمأْكَلِها وَمَشْرَبِها، أَسْرِعي واسْتَعِدّي يا كاتي...

ـ سَأَفْعَلُ كُلَّ ما تَطْلُبُهُ.. لِأَنَّ لِنْتون هوَ كُلُّ ما أَمْلِكُهُ في هَذِهِ الدُّنْيا، إِنَّكَ فَعَلْتَ المُسْتَحيلَ لِتَجْعَلَ الكَراهيَةَ قائِمَةً بَيْني وَبَيْنَهُ، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَنْجَحَ. رَغْمَ سوءِ طِباعِ لِنْتون (فَأَنا أَفْضَلُ مِنْهُ طَبْعاً) سَأُسامِحُهُ مَهْما بَدَرَ مِنْهُ مِنْ أَفْعالٍ.. إِنَّهُ يُحِبُّني وَأَنا أُحِبُّهُ، أَما

أَنْتَ يا مِسْتَر هيثْكْليف، فَلَيْسَ هُنالِكَ مَنْ يُحِبُّكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

ـ سَتَنْدَمينَ لِقَوْلِكِ هَذا. اذْهَبي الآنَ وَأَحْضِري أَمْتِعَتَكِ.

وَطَلَبْتُ مِنْ هيثْكْليف أَنْ أَكونَ قَريبَةً مِنْ كاتي، لَكِنَّهُ رَفَضَ طَلَبي، وَراحَ يُقَلِّبُ نَظَرَهُ ثُمَّ قالَ:

ـ بِالأَمْسِ، طَلَبْتُ مِنْ حَفّارِ القُبورِ أَنْ يُزيحَ التُّرابَ عَنْ وَجْهِ التّابوتِ. واقْتَرَبْتُ، وَفَتَحْتُهُ، وَكانَ وَجْهُ إِدْغارَ ما زالَ مُحْتَفِظاً بِشَكْلِهِ و...

ـ فَقاطَعَتْهُ قائِلَةً:

ـ إِنَّكَ شَرُّ رَجُلٍ عَرَفْتُهُ في حَياتي. أَتُحاوِلُ إِقْلاقَ راحَةِ المَوْتى أَيْضاً؟

ـ أَنا لَمْ أُقْلِقْ أَحَداً.. إِنَّ كاترينَ المُتَوَفّاةُ ظَلَّتْ تُقْلِقُني لَيْلاً وَنَهاراً مُدَّةَ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عاماً، مِنْ دونِ رَحْمَةٍ. حَتّى اللَّيْلَةَ الماضيَةَ، حَلِمْتُ أَنَّني مُتُّ إلى جانِبِها وَوَجْنَتي تُلامِسُ وَجْهَها...

تَوَقَّفَ هيثْكْليف عَنْ حَديثِهِ ثُمَّ انْتَزَعَ صورَةَ كاترين الَّتي كانَتْ مُعَلَّقَةً عَلى الجِدارِ. وَهُنا عادَتْ كاتي، وَأَعْلَنَتْ اسْتِعْدادَها لِمُرافَقَتِهِ، فالْتَفَتَ إِلَيَّ هيثْكْليف وَقالَ:

ـ أَبْقي لي هَذِهِ الصّورَةَ في الغَدِ يا نيلّلي.

وَصاحَتْ كاتي بِصَوْتٍ تَخْنُقُهُ العَبَراتُ:

ـ إلى اللِّقاءِ يا نيلّلي... تَعالي لِزِيارَتِنا.

فَقالَ هيثْكْليف: «احْذَري القِيامَ بِذَلِكَ..».

ثُمَّ تَأَبَّطَ ذِراعَها، وَغادَرا البَيْتَ.

مَضى سَنَةٌ عَلى زَواجِ كاتي قُمْتُ خِلالَها بِزِيارَتِها مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً، لَكِنَّني لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَتِها. وَأَخْبَرَتْني زيلّلا عَنْ حَياةِ كاتي فَقالَتْ:

حينَ وَصَلَتْ كاتي إِلى هَذا القَصْرِ، أَسْرَعَتْ إِلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ، دونَ أَنْ تُلْقِيَ التَّحِيَّةَ على أَحَدٍ، وَأَغْلَقَتِ البابَ وَراءَها، وَبَقِيَتْ حَتّى الصَّباحِ، إِذْ كانَ هيثْكْليف وَهاريتون يَتَناوَلانِ الطَّعامَ، فَطَلَبَتْ مِنْهُما اسْتِدْعاءَ الطَّبيبِ لِزَوْجِها المَريضِ. فَأَجابَها هيثْكْليف:

ـ نَحْنُ نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَحَياتُهُ شَيْءٌ تافِهٌ بِالنِّسْبَةِ لَنا.

ـ إِنَّني لا أَعْلَمُ ما يَجِبُ عَمَلُهُ، لِكِنَّهُ سَيَموتُ إِنْ لَمْ يُقَدِّمْ لي أَحَدٌ المُساعَدَةَ..

صَرَخَ بِها هيثْكْليف:

ـ أُخْرُجي مِنْ هُنا، فَإِنَّنا لا نَهْتَمُّ لِما سَيَحْدُثُ لَهُ، وَإِنْ كانَ يُهِمُّكِ أَمْرُهُ، فَاعْتَنى بِهِ، وَإِلّا أَقْفِلي الغُرْفَةَ عَلَيْهِ، واتْرُكيهِ.

وَذاتَ يَوْمٍ، حَضَرَتْ إِلَيَّ كاتي وَقالَتْ:

ـ اذْهَبي يا زيلّلا واسْتَدْعي هيثْكْليف، إِنَّ ابْنَهُ يَحْتَضِرُ.

لَمْ أَسْتَجِبْ لِطَلَبِها، وَقُلْتُ بِنَفْسي: «لا بُدَّ أَنَّها مُخْطِئَةٌ»، وَلَكِنَّني اسْتَيْقَظْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتَ الجَرَسِ مِنْ غُرْفَةِ لِنتون يُقْرَعُ. وَأَمَرَني هيثْكْليف أَنْ أَسْتَطْلِعَ عَنِ السَّبَبِ، فَتَوَجَّهْنا

جَميعاً، وَإِذْ بِلِنْتون قَدْ فارَقَ الحَياةَ.. وَلَمَسَهُ هيثْكْليف ثُمَّ اسْتَدارَ نَحْوَ كاتي وَقالَ:

ـ كَيْفَ تَشْعُرينَ الآنَ؟

ـ إِنَّهُ في أَمانٍ الآنَ، وَأَنا حُرَّةٌ أَيْضاً.

وَعِنْدَما انْتَهَتْ زيلّلا مِنْ سَرْدِ قِصَّةِ كاتي، قَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَأْجِرَ أَحَدَ البُيوتِ، وَأَنْ أَدْعوَ كاتي لِلْعَيْشِ مَعي، لَكِنَّ هيثْكْليف لَمْ يَسْمَحْ لي بِذَلِكَ.

وَهُنا أَنْهَتْ مِسِزْ دين حَديثَها أَثْناءَ مَرَضي..

وَبَعْدَ أَيّامٍ عادَتْ لي صِحَّتي، وَنَشاطي، فَغادَرْتُ مَزْرَعَةَ تْراش كْروسْ، وَعُدْتُ إِلى لندن، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ نَسيتُ كُلَّ شَيْءٍ سِوى مِسِزْ دين وَهيثْكْليف.

وَلَكِنّي، في شَهْرِ أَيْلول، دُعيتُ لِحُضورِ مَوْسِمِ الصَّيْدِ، في الشَّمالِ. وَبَيْنَما كُنْتُ في طَريقي إِلى بَيْتِ صاحِبِ الدَّعْوَةِ، تَوَلَّتْني رَغْبَةٌ جامِحَةٌ لِزِيارَةِ مَزْرَعَةِ تْراشْ كْروس الَّتي تَبْعُدُ خَمْسَةَ عَشَرَ ميلاً عَنْ جيمِرْتون.

وَصَلْتُ إِلى المَزْرَعَةِ، فَرَأَيْتُ امْرَأَةً عَجوزاً، تَجْلِسُ فَوْقَ دَرَجاتِ مَدْخَلِ البَيْتِ الَّذي قَضَيْتُ بِهِ أَيّامَ مَرَضي وَأَنا أَسْتَمِعُ إِلى مِسِزْ دين.

أَلْقَيْتُ التَّحِيَّةَ عَلى تِلْكَ المَرْأَةِ، ثُمَّ قُلْتُ لَها:

ـ هَلْ مِسِزْ دينَ هُنا؟

فَرَدَّتْ قائِلَةً:

ـ كَلّا.. إِنَّها تَعيشُ في المُرْتَفَعاتِ..

طَلَبْتُ مِنها أَنْ تُجَهِّزَ لي غُرْفَةً عِنْدَها لِقَضاءِ لَيْلَتي، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ نَحْوَ الطَّريقِ المُؤَدِّيَةِ إِلى بَيْتِ هيثْكْليف.

كانَتْ رائِحَةُ الزُّهورِ تَمْلَأُ الجَوَّ، أَمّا الأَبْوابُ والنَّوافِذُ، فَكانَتْ مُشَرَّعَةً، تَوَقَّفْتُ هُنَيْهَةً وَرِحْتُ أَنْظُرُ حَوْلي، وَلَفَتَ نَظَري صورَةَ شَخْصَيْنِ جالِسَيْنِ، أَحَدُهُما يَأْمُرُ الثّاني بِإِعادَةِ القِراءَةِ بِشَكْلٍ صَحيحٍ.

اقْتَرَبْتُ، فَرَأَيْتُ شابّاً يَرْتَدي مَلابِساً مُحْتَرَمَةً، يَجْلِسُ وَأَمامَهُ كِتابٌ، وَعَلى كَتِفِهِ يَدٌ بَيْضاءَ صَغيرَةٌ، صاحِبَتُها تَقِفُ وَراءَهُ، وَشَعْرُها اللّامِعُ يُلامِسُ شَعْرَهُ كُلَّما انْحَنَتْ لِتُراقِبَ قِراءَتَهِ.

وَمِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّها واقِفَةٌ وَراءَهُ وَإِلّا لَما اسْتَطاعَ أَنْ يُتابِعَ دَرْسَهُ.. إِنَّها آيَةٌ مِنَ آياتِ الجَمالِ. وَقُلْتُ بِنَفْسي: «لا بُدَّ أَنْ يَكونَ هَذانِ الشَّخْصانِ هُما كاتي وَهاريتون».

تَقَدَّمْتُ مِنْ بابِ المَطْبَخِ، فَرَأَيْتُ صَديقَتي القَديمَةَ مِسِزْ دين، جالِسَةً تُغَنّي، وَكانَ صَوْتُ يوسُفَ يُقاطِعُ أُغْنِيَتَها بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ.

وَما إِنْ لَمَحَتْني، حَتّى قَفَزَتْ، وَهِيَ تَهْتِفُ:

ـ حَفِظَكَ اللهُ يا مِسْتَر لوكْوود!.. كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلى العَوْدَةِ إِلى هُنا؟

فَأَجَبْتُها:

ـ إِنَّني مُسافِرٌ يَوْمَ الغَدِ.. وَلَكِنْ أَنْتِ، ماذا جاءَ بِكِ إِلى هُنا؟..

ـ تَرَكَتْ زيلّلا خِدْمَتَها هُنا، فَحَلَلْتُ مَكانَها.. هَلْ أَتَيْتَ مِنَ جيمِرْتون راجلاً؟

ـ كَلّا.. إِنَّني أَتَيْتُ مِنَ المَزْرَعَةِ لِتَصْفِيَةِ حِسابي مَعَ هيثْكْليف.

ـ عَنْ أَيِّ حِسابٍ تَتَحَدَّثُ يا مِسْتَر لوكوود؟

ـ إِنَّني أَوَدُّ أَنْ أَسْتَأْجِرَ مِنْهُ المَزْرَعَةَ..

ـ أَلَمْ تَسْمَعْ بِوَفاةِ هيثْكْليف؟.

ـ وَمُنْذُ مَتى تُوُفِّيَ؟..

ـ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ. اجْلِسْ لِأُخْبِرَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَجَلَسْتُ أَسْتَمِعُ.. فَقالَتْ:

ـ اسْتَدْعَتْني كاتي لِلذَّهابِ إِلى المُرْتَفَعاتِ، فَلَبَّيْتُ طَلَبَها وَأَنا مَسْرورَةٌ، وَعِنْدَما قابَلْتُها، شَعَرْتُ بِحُزْنٍ عَلى حالِها.. لَقَدْ تَغَيَّرَتْ كَثيراً مُنْذُ فِراقِها لي، كَما سَئِمَ هيثْكْليف رُؤْيَتَها، وَحَظَرَ عَلَيْها تَجاوُزَ الحَديقَةِ. كانَتْ كاتي تَعيشُ بِقَلَقٍ غَريبٍ، تَطْلُبَ مِنّي أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْها في بَعْضِ الأَحْيانِ، وَتُفَضِّلُ الشِّجارَ مَعَ يوسُفَ عِنْدَما تَكونُ وَحيدَةً. أَمّا هاريتون فَكانَتْ تَكْرَهُهُ كَثيراً، وَتُغادِرُ المَطْبَخَ عِنْدَ قُدومِهِ وَتَأْتي بِهُدوءٍ لِتُشارِكَني في العَمَلِ. وَلَكِنَّها بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ أَخَذَتْ تَميلُ إِلَيْهِ، وَتُعَلِّقُ عَلى كَسَلِهِ، وَتُبْدي اسْتِغْرابَها مِنْ نَمَطِ حَياتِهِ الَّتي يَعيشُها، حَتّى أَنَّها قالَتْ لي مَرَّةً:

ـ إِنَّ هاريتون مِثْلَ الكَلْبِ، فَهو يَعْمَلُ، وَيَأْكُلُ، وَيَنامُ. إِنَّني

لا أَعْرِفُ السَّبَبَ الَّذي يَمْنَعُ هاريتون مِنْ مُحادَثَتي وَأَنا في المَطْبَخ. لَرُبَّما يَخْشى أَنْ أَسْخَرَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَحْرَقَ كُتُبَهُ ذاتَ مَرَّةٍ، عِنْدَما سَخِرْتُ مِنْهُ وَهو يَتَعَلَّمُ القِراءَةَ. ما رَأْيُكِ يا نيلّلي؟

وَتابَعَتْ مِسِزْ دين حَديثَها لي قائِلَةً:

- أَمّا هيثْكْليف، فَقَدْ حاوَلَ ذاتَ مَرَّةٍ أَنْ يَطْرُدَ هاريتون مِنْ غُرْفَتِهِ، وَلَكِنَّ هاريتون، اضْطُرَّ لِمُلازَمَةِ البَيْتِ بِضْعَةَ أَيّامٍ، لِإِصابَتِهِ بِجَرْحٍ في ذِراعِهِ أَثْناءَ الصَّيْدِ.

وَفي ثاني يَوْمِ عيدِ الفِصْحِ، غادَرَ الجَميعُ البَيْتَ، وَبَقِيَ هاريتونُ كَعادَتِهِ قُرْبَ المِدْفَأَةِ، وَكانَتْ كاتي آنَذاكَ، واقِفَةً أَمامَ النّافِذَةِ تَرْسُمُ بَعْضَ الصّوَرِ. وَقَدْ ضاقَتْ ذَرْعاً بِهاريتون الَّذي يواصِلُ تَدْخينَهُ وَصَمْتَهُ فَقالَتْ:

- لَقَدِ اكْتَشَفْتُ يا هاريتون أَنّني سَعيدَةٌ الآنَ! وَأَرْغَبُ أَنْ تَكونَ ابْنَ عَمَّتي..

لَمْ يَكْتَرِثْ هاريتون لِحَديثِها.. فَأَعادَتْ حَديثَها قائِلَةً:

- هاريتون.. هاريتون، ما بِكَ!.. هَلْ تَسْمَعُني؟

فَأَجابَها بِحِدَّةٍ: «اذْهَبي عَنّي..».

اقْتَرَبَتْ مِنْهُ بِحَذَرٍ، وانْتَشَلَتْ غَلْيونَهُ، ثُمَّ كَسَرَتْهُ وَرَمَتْهُ في النّارِ. وَهُنا أَخَذَ هاريتون غَلْيوناً آخَرَ، فَصَرَخَتْ بِهِ:

- تَمَهَّلْ.. اسْتَمِعْ إِلَيَّ أَوَّلاً، لا يُمْكِنُني أَنْ أَتَحَدَّثَ وَهَذا الدُّخانُ يَتَصاعَدُ فَيَخْنُقُني.

فَصَرَخَ بِها هاريتون قائِلاً:

- اذْهَبي عَنّي، وَدَعيني وَحيداً..

- لَنْ أَتْرُكَكَ أَبَداً، وَسَأَجْعَلُكَ تَهْتَمُّ بي، فَأَنا ابْنَةُ خالِكَ..

وَهُنا تَدَخَّلْتُ قائِلَةً:

- يَجِبُ أَنْ تَكونا صَديقَيْنِ مُتَحابَّيْنِ يا مِسْتَر هاريتون، وَخاصَّةً أَنَّها قَدَّمَتْ لَكَ اعْتِذارَها عَنْ سُلوكِها فيما مَضى. مِنْ مَصْلَحَتِكَ يا هاريتون أَنْ تَقْبَلَها رَفيقَةً لَكَ. وَصَرَخَ هاريتون:

- أَقْبَلُها رَفيقَةً وَهِيَ تَكْرَهُني وَ..

فَقاطَعَتْهُ كاتي قائِلَةً:

- أَنْتَ الَّذي يَكْرَهُني!.. إِنَّكَ تَكْرَهُني أَكْثَرَ مِنْ مِسْتَر هيثْكْليف.

- لا يا كاتي، إِنَّ ما تَقولينَهُ لَيْسَ صَحيحاً. لَقَدْ دافَعْتُ عَنْكِ مِئاتِ المَرّاتِ في الوَقْتِ الَّذي كُنْتِ تَهْزَئينَ مِنّي.

تَقَدَّمَتْ مِنْهُ كاتي، وَطَبَعَتْ قُبْلَةً على وَجْهِهِ وانْصَرَفَتْ تُغَلِّفُ كِتاباً بِوَرَقَةٍ بَيْضاءَ، ثُمَّ رَبَطَتْهُ بِشَريطٍ وَكَتَبَتْ عَلَيْهِ.. «إِلى مِسْتر هاريتون إيرْنْشو». ثُمَّ طَلَبَتْ مِنّي أَنْ أُقَدِّمَهُ إِلى المِسْتر هاريتون. وَقَدْ أَخَذَ هاريتون هَدِيَّتَها. وَفيما كانَ يَقومُ بِفَتْحِها، اقْتَرَبَتْ مِنْهُ كاتي وَقالَتْ:

- قُلْ إِنَّكَ سامَحْتَني، هَذا رَجاءٌ مِنّي، وَسَنُصْبِحُ صَديقَيْنِ.

في اليَوْمِ التّالي، تَوَجَّهَتْ كاترين نَحْوَ الحَديقَةِ وَطَلَبَتْ مِنْ هاريتون أَنْ يَقومَ بِتَنْظيفِ قُطْعَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ راحَ الاثْنانِ يَأْتِيانِ بِبَعْضِ النَّباتاتِ مِنَ المَزْرَعَةِ وَيَغْرُسانِها.

لَقَدْ كُنّا نَتَناوَلُ الطَّعامَ مَعَ المِسْتَر هيثْكْليف، وَكانَتْ كاتي

تَجْلِسُ كَعادَتِها بِجانِبي. أَمّا اليَوْمَ، فَقَدْ اتَّخَذَتْ مَكانَها إِلى جانِبِ هاريتون، فَهَمَسْتُ بِأُذُنِها أَنْ لا تُكْثِرَ الحَديثَ مَعَ هاريتون، لِأَنَّ ذَلِكَ يُغْضِبُ هيثْكْليف. وَهُنا راحَتْ كاتي وَأَحْضَرَتْ باقَةً مِنَ الأَزْهارِ، وَوَضَعَتْها في صَحْنِ هيثْكْليف. غَيْرَ أَنَّ هاريتون لَمْ يَجْرُؤْ عَلى الكَلامِ، وَلَمْ يَعُدْ بِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يُمْسِكَ نَفْسَهُ عَنِ الضَّحِكِ.

وَأَخَذَ هيثْكْليف يَنْظُرُ إِلَيْهِما بِدَهْشَةٍ ثُمَّ قالَ:

ـ ماذا بِكُما؟ لِماذا تَنْظُرانِ إِلَيَّ هَكَذا؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّني شَفَيْتُكُما مِنَ الضَّحِكِ.

فَأَجابَهُ هاريتون:

ـ أَنَا السَّبَبُ الَّذي يَجْعَلُ كاتي تَضْحَكُ..

وَوَصَلَ يوسُف والغَضَبُ الشَّديدُ بادٍ عَلَيْهِ، وَراحَ يَشْرَحُ لِهيثْكْليف ما فَعَلَهُ هاريتون. وَنَفَذَ صَبْرُ هيثْكْليف وَقالَ:

ـ هَلْ أَكْثَرَ مِنْ شُرْبِ الكُحولِ..

فَأَجابَهُ هاريتون:

ـ لَقَدِ اقْتَلَعْتُ ثَلاثَ شَجَراتٍ.

ـ وَلِماذا فَعَلْتَ ذَلِكَ؟..

فَأَجابَتْهُ كاتي:

ـ أَنا المَسْؤولَةُ عَنْ عَمَلِهِ، فَلا حاجَةَ لِتَوْجيهِ اللَّوْمِ إِلَيْهِ يا سَيِّدي..

ـ وَأَنْتِ، مَنْ أَذِنَ لَكِ بِذَلِكَ؟ وَأَنْتَ يا هاريتون، مُنْذُ مَتى وَأَنْتَ تُطيعُ أَوامِرَها؟.

وَأَجابَتْهُ كاتي:

ـ لا تَحْزَنْ إِنِ اسْتَخْدَمْتَ قِطْعَةً صَغيرَةً مِنَ الأَرْضِ، فَلَقَدِ اسْتَوْلَيْتَ عَلى مُمْتَلَكاتي جميعِها..

ـ أَكانَ عِنْدَكِ مُمْتَلَكاتٌ، واسْتَوْلَيْتُ عَلَيْها يا كاتي؟

ـ أَنْتَ لَمْ تَسْتَوْلِ عَلى مُمْتَلَكاتي فَقَطْ، بَلْ عَلى أَموالي أَيْضاً، وَعَلى مُمْتَلَكاتِ هاريتون وَأَمْوالِهِ.. إِنَّني سَأُخْبِرُ هاريتون بِكُلِّ ما فَعَلْتَهُ..

إِسْوَدَّ وَجْهُ هيثْكْليف وَنَظَرَ إِلى كاتي نَظْرَةَ كُرْهٍ مُميتَةٍ. وَهُنا وَقَفَ هاريتون وَقالَ موَجِّهاً حَديثَهُ لِهيثْكْليف:

ـ سَأَضْرِبُكَ إِنْ حاوَلْتَ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ عَلَيْها. مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَجْلِسَ..

ثُمَّ قالَتْ كاتي:

ـ إِنَّ هاريتون لَنْ يُطيعَ لَكَ أَمْراً بَعْدَ اليَوْمِ وَلا أَسْمَحُ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَهُ بِهذِهِ اللَّهْجَةِ..

فاقْتَرَبَ مِنْها هيثْكْليف، وَأَمْسَكَها مِنْ شَعْرِها. وَراحَ هاريتون يَرْجوهُ أَلّا يُؤْذيها. لَكِنَّهُ قالَ:

ـ سَأَقْتُلُكِ إِنْ حاوَلْتِ أَنْ تُثيري غَضَبي مَرَّةً ثانيَةً. اذْهَبي مَعَ دين، وابْقَي بِجِوارِها. إِنَّ حُبَّكِ لهاريتون سَيَجْعَلُهُ معدماً.. دَعوني الآنَ جَميعاً..

خَرَجْنا مِنَ الغُرْفَةِ وَأَنا مَسْرورَةٌ لِنَجاةِ كاتي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ. وَعِنْدَ الظُّهْرِ طَلَبَ حُضورَها عِنْدَما رَأى كُرْسِيَّها خالياً..

تناوَلَ هيثكْليف القَليلَ مِنَ الطَّعام، ثُمَّ خَرَجَ وَهوَ يُعْلِمُنا بِأَنَّهُ سَيَعودُ مَساءً، أَمّا كاتي وَهاريتون فَقَدْ بَقيا في البَيْتِ. وَسَمِعْتُ هاريتون وَهوَ يُحاوِلُ مَنْعَ كاتي عَنْ سَرْدِ الأَحْداثِ الَّتي وَقَعَتْ بَيْنَ هيثكْليف وَوالِدِهُ إيْرنْشو. وَقَدْ أَكَّدَ لَها بِأَنَّهُ لا يَقْبَلُ سَماعَ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ تُقالُ بِحَقِّ هيثكْليف، وَسَيَبْقى إلى جانِبِهِ.

عَلِمَتْ كاتي أَنَّ هُنالِكَ صِلَةً وَثيقَةً تَربُطُ بَيْنَ هاريتون وَسَيِّدِ مُرْتَفَعاتِ وَذْرينغ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ، امْتَنَعَتْ عَنِ التَّعَرُّضِ إلى هيثكْليف في أَحاديثِها، واعْتَرَفَتْ لي عَنْ أَسَفِها لِمُحاوَلَتِها إثارَةَ الكَراهِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هاريتون..

عادَ الصَّديقانِ إلى وَظيفَتَيْهِما كَمُعَلِّمَةٍ وَتِلْميذٍ وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِالرّاحَةِ مَعَهُما وَأَنا فَخورَةٌ بِهِما. وَعِنْدَ مَغيبِ الشَّمْسِ، عادَ المِسْتر هيثكْليف، وَكانَ هاريتون جالِساً بِجوارِ كاتي وَرَفَعا رَأْسَيْهِما عِنْدَ دُخولِ هيثكْليف الغُرْفَةَ، فَبَدا تَشابُهُ عُيونِهِما. وَقَدْ تَناوَلَ هيثكْليف الكِتابَ مِنْ يَدِ هاريتون ثُمَّ أَعادَهُ إِلَيْهِ مِن دونِ أَنْ يُبْدي أَيَّةَ مُلاحَظَةٍ، وَأَشارَ إلى كاتي بِالخُروجِ، وَتَبِعَها هاريتون عَلى الفَوْرِ، أَمّا أَنا، فَحاوَلْتُ أَنْ أَخْرُجَ لِكِنَّ هيثكْليف طَلَبَ مِنّي البَقاءَ مَعَهُ. ثُمَّ قالَ:

- إِنَّها نِهايَةٌ هَزْلِيَّةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟.. نِهايَةٌ سَخيفَةٌ لِكِفاحي الطَّويلِ.. لَقَدْ جَمَعْتُ قوَّتي كلّها لِتَدْميرِ القوَّتَيْنِ، وَعِنْدَما حانَ الوَقْتُ لِاسْتِلامِ مَفاتيحِ النَّصْرِ، تَبَخَّرَتْ أَتْعابي؛ لِأَنَّني فَقَدْتُ قوَّتي الَّتي تُمَكِّنُني مِنَ التَّمَتُّعِ بِتَدْميرِ هَذَيْنِ الخَليفَتَيْنِ.

إِنَّ تَغْييراً كَبيراً في الأُفُقِ يَبْدو لي، وَأَنا أَقِفُ في ظِلِّهِ.. إِنَّني

لا أَهْتَمُّ بِحَياتي المادِيَّةِ، فَكَثيراً ما نَسيتُ الطَّعامَ والشَّرابَ لَكِنَّ هَذَيْنِ الاثْنَيْنِ هُما اللَّذانِ يَحْتَفِظانِ بِسِرّي أَمامَ عَيْنَيَّ، كَما أَنَّ مَظْهَرُهُما، هوَ الَّذي يُسَبِّبُ لي الأَلَمَ. إِنَّ وُجودَ كاتي يُبْهِرُني، أَمّا هاريتون، فَإِنَّهُ قَبْلَ لَحظاتٍ ذَكَّرَني بِأَيّامِ شَبابي.. إِنَّ العالَمَ يا نيلّلي مَجْموعَةٌ مُخيفَةٌ مِنَ الذِّكْرَياتِ.

إِنَّ هاريتون هَذا، هوَ شَبَحُ حُبّي الَّذي لا يَفْنى، إِنَّهُ حُبّي، وَكِبْريائي، وَسَعادَتي، وَأَحْزاني.

- وَماذا تَعْني بِالتَّغْيير، يا مِسْتَر هيثْكْليف؟

- عِنْدَما يَحينُ الوَقْتُ، أَعْلَمُ ذَلِكَ..

- لَكِنْ، هَلْ تَشْعُرُ بِأَعْراضِ مَرَضٍ ما يا سَيِّدي؟

- كَلّا يا نيلّلي، أَنا لا أَشْكو مِنْ شَيْءٍ، وَلا أَخافُ مِنَ المَوْتِ.. يَجِبُ أَنْ أَبْقى حَيّاً عَلى هَذِهِ الأَرْضِ إِلى أَنْ يَشْتَعِلَ رَأْسي شَيْباً. إِنَّ لَدَيَّ أُمْنِيَةً واحِدَةً.. آه يا إِلَهي!.. لَقَدْ طالَ الصِّراعُ وَأَرْجو أَنْ يَبْلُغَ نِهايَتَهُ.

كانَ المِسْتَر هيثْكْليف يُصِرُّ عَلى جُلوسِ كاتي وَهاريتون مَعَهُ عَلى المائِدَةِ، رَغْمَ أَنَّ الْتِقاءَهُ بِهِما كانَ يُسَبِّبُ لَهُ الحُزْنَ والأَلَمَ. وَذاتَ لَيْلَةٍ، غادَرَ هيثْكْليف القَصْرَ، وَأَطَلَّ الصَّباحُ، وَلَمْ يَعُدْ مِنْ رِحْلَتِهِ.

كانَ اليَوْمُ جَميلاً، دافِئاً، وَطَلَبَتْ مِنّي كاتي أَنْ أُحْضِرَ مَقْعَداً إِلى خارِجِ البَيْتِ، لِنَسْتَمْتِعَ بِنورِ الصَّباحِ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْ هاريتون أَنْ يَعْمَلَ قَليلاً في حَديقَتِها الصَّغيرَةِ. وَراحَتْ تَسيرُ بِبُطْءٍ، هُنا وَهُناكَ، ثُمَّ عادَتْ مُسْرِعَةً تُخْبِرَنا بِعَوْدَةِ هيثْكْليف..

كانَ هيثْكْليف، شاحِبَ الوَجْهِ، أَشْعَثَ الشَّعْرِ، وَأَطْرافُهُ تَرْتَجِفُ، غَيْرَ أَنَّ بَريقاً غَريباً بَدا لي في عَيْنَيْهِ، فَسَأَلْتُهُ:

- هَلْ تَرْغَبُ في تَناوُلِ طَعامِ الفَطورِ يا سَيِّدي؟

- كَلّا.. إِنَّني لَسْتُ جائِعاً..

- إِنَّ جَوْلَتَكَ خارِجَ البَيْتِ أَثْناءَ اللَّيْلِ، سَتُسَبِّبُ لَكَ نَزْلَةً صَدْرِيَّةً قَوِيَّةً.

فَلَمْ يَرُدَّ.

جَلَسْنا حَوْلَ المائِدَةِ لِتَناوُلِ طَعامِ الغَداءِ، وَمَلأْتُ صَحْنَ هيثْكْليف، وَقَدَّمْتُهُ لَهُ.. أَخَذَ السِّكينَ والشَّوْكَةَ، وَلَكِنَّهُ ما لَبِثَ أَنْ أَعادَهُما إِلى الطّاوِلَةِ، وَراحَ يَنْظُرُ بِلَهْفَةٍ، وَسُرورٍ نَحْوَ النّافِذَةِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَسيرُ في الحَديقَةِ. وَتَبِعَهُ هاريتون وَهوَ يَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ عُزوفِهِ عَنْ تَناوُلِ الطَّعامِ، فَأَجابَهُ هيثْكْليف:

- عُدْ إِلى المائِدَةِ، فَأَنا لَسْتُ جائِعاً.

وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ تَقْريباً، عادَ هيثْكْليف، والسُّرورُ مُرْتَسِمٌ عَلى وَجْهِهِ. وَهُنا قُلْتُ لَهُ:

- هَلْ وَرَدَتْكَ أَخْبارٌ سارَّةٌ، يا مِسْتَر هيثْكْليف؟

- وَمِنْ أَيْنَ تَأْتيني الأَنْباءُ السّارَّةُ، يا نيلّلي، قولي لِهاريتون وَكاتي، أَنْ يَغْرُبا مِنْ أَمامي.

- لَكِنْ، لِماذا تَبْدو غَريباً هَكَذا يا مِسْتَر هيثْكْليف؟

- في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ كُنْتُ أَتَعَذَّبُ، أَمّا اليَوْمَ، فَأَنا عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ السَّماءِ، والأَفْضَلُ أَنْ تَذْهَبي مِنْ هُنا الآنَ.

في السّاعَةِ الثّامِنَةِ حَمَلْتُ وَجْبَةَ الطّعامِ لَهُ، فَوَجَدْتُهُ مُنْحَنِياً عَلى حافَّةِ النّافِذَةِ، وَرَأْسُهُ بَيْنَ راحَتي يَدَيْهِ. كانَ الهُدوءُ مُخَيِّماً، وَقَدْ خَمَدَتِ النّارُ في المِدْفَأَةِ، فَقُلْتُ لَهُ:

ـ هَلْ تُريدُ أَنْ أُغْلِقَ هَذِهِ النّافِذَةَ؟

اسْتَوْلى عَلَيَّ خَوْفٌ شَديدٌ عِنْدَما رَأَيْتُ شُحوبَ المَوْتِ في وَجْهِهِ وَقُلْتُ لِنَفْسي: «أَهَذا هيثْكْليف، أَمْ أَنَّهُ شَيْطانٌ أَمامي» وَمِنْ فَزَعي تَرَكْتُ الشَّمْعَةَ، وَأَنا أُحاوِلُ الهَرَبَ، لَكِنَّني سَمِعْتُ صَوْتَهُ يَقولُ:

ـ أَغْلِقي النّافِذَةَ، وَأَحْضِري شَمْعَةً أُخْرى..

أَسْرَعْتُ، والخَوْفُ يَمْلأُ قَلْبي، وَطَلَبْتُ مِنْ يوسُف أَنْ يُعْطِيَ الشَّمْعَةَ لِهيثْكْليف.

بَعْدَ لَحظاتٍ قَليلَةٍ، تَوَجَّهَ هيثْكْليف نَحْوَ الغُرْفَةِ الَّتي تَحْتَوي عَلى الفِراشِ ذي الخِزانَةِ الخَشَبِيَّةِ.

أَخَذْتُ أَسْتَعيدُ ذِكْرَياتِ الماضي: طُفولَةَ هيثْكْليف، وَطَبيعَتَهُ الغَريبَةَ[١]، وَمِنْ أَيْنَ أَتى هَذا الشَّخْصُ الَّذي عاشَ بِحِمايَةِ رَجُلٍ طَيِّبٍ ثُمَّ سَبَّبَ دَمارَ عائِلَتِهِ فيما بَعْدُ.

وَفي الصَّباحِ، كَعادَتي، جَهَّزْتُ طَعامَ الفُطورِ، وَكانَ هيثْكْليف آنَذاكَ يُحَدِّثُ يوسُف، فَقَدَّمْتُ لَهُ القَهْوَةَ. قَرَّبَها مِنْهُ، وَراحَ يَنْظُرُ نَحْوَ الجِدارِ مُرَكِّزاً عَيْنَيْهِ عَلى نُقْطَةٍ مُحَدَّدَةٍ، وَهُنا صَرَخْتُ بِهِ قائِلَةً:

ـ يا سَيِّدي.. يا مِسْتَر هيثْكْليف.. لِماذا تُحَدِّقُ وَكَأَنَّكَ تَرى رُؤْيَةً سَماوِيَّةً.

(١) طبيعته الغريبة: أخلاقه وتصرفاته الغير عادية.

ـ لا تَصْرُخي هَكَذا!.. انْظُري حَوْلَكِ، هَلْ نَحْنُ وَحْدُنا هُنا؟

ـ نَعَمْ.. نَحْنُ وَحْدُنا..

أَزاحَ الطَّعامَ مِنْ أَمامِهِ، وَراحَ يُحَدِّقُ مِنْ جَديدٍ، والغِبْطَةُ بادِيَةٌ عَلى وَجْهِهِ، ثُمَّ خَرَجَ..

بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ عادَ هيثْكْليف، وَأَغْلَقَ بابَ غُرْفَةِ الجُلوسِ، وَراحَ يَسيرُ ذَهاباً وَإِياباً، ثُمَّ فَتَحَ البابَ وَقالَ:

ـ أُدْخُلي يا نيلّلي.. ادْخُلي، وَأَشْعِلي النّارَ..

كانَتْ أَنْفاسُهُ تَتَلاحَقُ، وَحَرَكاتُهُ عَصَبِيَّةٌ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَقالَ:

ـ اسْتَدْعي المُحامي غَرين، فَأَنا لَمْ أُحَرِّرْ وَصِيَّتي بَعْدُ، وَلا أَعْرِفُ كَيْفِيَّةَ تَوْزيعِ مُمْتَلَكاتي. آه لَوْ بِإِمْكاني تَدْميرَها.. لا.. لا ضَرورَةَ لِمِسْتَر غَرين مِنْ أَجْلِ مُمْتَلَكاتي، وَبالنِّسْبَةِ لِأَعْمالي الظّالِمَةِ، فَأَنا ما ظَلَمْتُ أَحَداً. إِنَّني سَعيدٌ، غَيْرَ أَنَّ سَعادَةَ روحي تَقْتُلُ جَسَدي.

ـ أَنْتَ سَعيدٌ يا سَيِّدي؟ لَوْ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ إِلَيَّ مِنْ دونِ أَنْ تَغْضَبَ، لَقَدَّمْتُ لَكَ نَصيحَةً..

ـ هاتي ما لَدَيْكِ، فَأَنا أَسْمَعُكِ..

ـ مُنْذُ أَنْ كُنْتَ في الثّالِثَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِكَ، وَأَنْتَ تَحْيا حَياةَ الأَنانِيَّةِ، غَيْرَ المَسيحِيَّةِ. إِنَّني أَنْصَحُكَ أَنْ تَدْعو القَسَّ لِيُساعِدَكَ عَلى تَنْقِيَةِ قَلْبِكَ.

ـ إِنَّني لَسْتُ بِحاجَةٍ لِلْقَسِّ، وَلا أُريدُ الصَّلاةَ فَوْقَ قَبْري، فَأَنا وَصَلْتُ إِلى سَمائي، غَيْرَ أَنّي أَطْلُبُ مِنْكِ أَنْتِ وَهاريتون وَكاتي

أَنْ تُتابِعوا جنازَتي وَتَتأكَّدوا مِنْ حَفّارِ القُبورِ مِنْ وَضْعي جانِبِ كاتْرين الرّاحِلَةِ. .

عِنْدَ الظُّهْرِ، حَضَرَ هيثْكليْف إلى المَطْبَخِ، وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أَجْلِسَ مَعَهُ، فَصَرَّحْتُ لَهُ بِأَنَّني أَصْبَحْتُ أَخافُ مِنْ تَصَرُّفاتِهِ الغَريبَةِ، فَبادَرَني قائِلاً:

ـ أَتَظُنّينَ يا نيلّلي أَنّني مِنَ الأَرْواحِ الشِّريرَةِ؟

ثُمَّ اسْتَدارَ نَحْوَ كاتي وَقالَ:

ـ تَعالَيْ أَنْتِ يا فَتاةَ، فَأَنا لَنْ أُؤْذيكِ، أَلَسْتُ أَنا الَّذي جَعَلْتُكِ تَكْرَهينَ؟

تَرَكْنا هيثْكليْف وَصَعَدَ إلى غُرْفَتِهِ، وَبَقِيَ طوالَ اللَّيْلِ، وَهو يَئِنُّ، وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ. فَطَلَبْتُ مِنْ هاريتون أَنْ يَسْتَدْعِيَ الطَّبيبَ، غَيْرَ أَنَّ هيثْكليْف، رَفَضَ أَنْ يَفْتَحَ البابَ، وَطَلَبَ مِنّا أَنْ نَتْرُكَهُ وَحيداً.

كانَتِ اللَّيْلَةُ التّالِيَةُ مُمْطِرَةً، وَبَيْنَما أَقومُ بِجَوْلَتي المُعْتادَةِ، رَأَيْتُ نافِذَةَ غُرْفَةِ هيثْكليْف مَفْتوحَةً، والمَطَرُ يَنْهَمِرُ بِشِدَّةٍ داخِلَها. وَبَعْدَ جَهْدٍ تَمَكَّنْتُ مِنْ فَتْحِ البابِ، فَوَجَدْتُ المِسْتَر هيثْكليْف مُسْتَلْقِياً عَلى ظَهْرِهِ، وَقَدْ فارَقَ الحَياةَ.

شَعَرْتُ بِحُزْنٍ عَميقٍ لِهَذِهِ الأَحْداثِ، أَمّا هاريتون، فَقَدْ جَلَسَ قُرْبَ هيثْكليْف وَراحَ يُقَبِّلُهُ، مَعَ العِلْمِ أَنَّ الجَميعَ كانوا يَتَفادونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ.

دَفَنّاهُ، حَسَبَ وَصِيَّتِهِ، وَغَطّى هاريتون القَبْرَ بِالتُّرابِ، وَزَرَعَ بَعْضَ الحَشائِشِ فَوْقَهُ.

وَمِنَ الغَريبِ يا مِسْتَر لوكْوود، أَنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ القَرَوِيّينَ هُنا، فَإِنَّهُمْ يُقْسِمونَ لَكَ بِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ يَسيرُ. . وَهُنالِكَ أَيْضاً، مَنْ يَقولونَ أَنَّهُمْ قابَلوهُ قُرْبَ الكَنيسَةِ، عِنْدَ المُسْتَنْقَعاتِ. . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ يوسُف يُعْلِنُ أَنَّهُ رَأى هيثْكليْف وَكاتْرين وَهُما يَنْظُرانِ مِنْ غُرْفَةِ النَّوْمِ إِلى الخارِجِ. وَأَنا أُخْبِرُكَ يا مِسْتَر لوكْوود أَنَّني مُنْذُ شَهْرٍ تَقْريباً، كُنْتُ مُتَوَجِّهَةً إِلى المَزْرَعَةِ، ذاتَ مَساءٍ، قابَلْتُ وَلَداً صَغيراً يَبْكي. سَأَلْتُهُ عَمّا بِهِ فَقالَ:

ـ إِنَّني لَمْ أَجْرُؤْ عَلى المُرورِ هُناكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ هيثْكليْف وَبِرِفْقَتِهِ امْرَأَةٌ. .

وَمِنْ كَثْرَةِ الأَقاويلِ الَّتي سَمِعْتُها، انْتابَني خَوْفٌ فَظيعٌ، فَأَصْبَحْتُ أَخْشى الخُروجَ مِنَ البَيْتِ في الظُّلْمَةِ كَما أَصْبَحْتُ أَخافُ البَقاءَ وَحيدَةً في هَذا البَيْتِ. .

وَأَضافَتْ مِسِزْ دين:

ـ سَأَكونُ سَعيدَةً عِنْدَما سَنَتْرُكُ هَذا البَيْتَ، وَنَعودُ إِلى المَزْرَعَةِ.

ـ وَمَتى سَيَتِمُّ ذَلِكَ؟ .

ـ في عيدِ رَأْسِ السَّنَةِ.

ـ وَمَنْ سَيَسْكُنُ هَذا البَيْتَ؟

ـ سَيَبْقى يوسُف بِرِفْقَةِ شَخْصٍ آخَرَ في المَطْبَخِ، أَمّا البَيْتُ، فَإِنَّهُ سَيُغْلَقُ. .

وَوَدَّعْتُ مِسِزْ دين، ثُمَّ قُمْتُ بِزِيارَةِ القُبورِ الثَّلاثَةِ، وَقُلْتُ بِنَفْسي: «حَتّى الأَمْواتَ لا يَنْعَمونَ بِالرّاحَةِ الأَبَدِيَّةِ في هَذا المَكانِ». . انتهى.

أسئلة حول القصة

١ ـ هل وافق السيّد «هيثكليف» على أن يمضي «لوكوود» الليل في منزله؟

٢ ـ من كان يخبر لوكوود بقصة قصر «إيرنشو»؟

٣ ـ ماذا أحضر السيّد «إيرنشو» معه لعائلته عندما عاد من «ليفربول»؟ وكيف كانت ردّة فعل طفليه؟

٤ ـ لماذا اختفى هيثكليف وغادر القصر؟

٥ ـ ما التغيير الذي طرأ على هيثكليف حين زار كاترين بعد ثلاث سنوات؟

٦ ـ كيف استقبلت كاتي الصغيرة ابن عمتها لنتون الصغير؟

٧ ـ ما سبب خوف لنتون الصغير من والده هيثكلف؟ وما كان يطلب منه دائماً؟

٨ ـ ماذا فعلت مسز دين حين احتجز هيثكليف كاتي في منزله؟

٩ ـ ماذا حدث للنتون بعد أن تزوّج من كاتي؟

١٠ ـ لمَ أبقى هيثكليف كاتي وهاريتون في منزله بعد أن استولى على ثروتهما؟

١١ ـ كيف كانت نهاية هيثكليف؟

١٢ ـ ما رأيُك في إحضار شخصٍ غريبٍ للعيش معكم؟ كيف ستتقبل الوضع؟ وكيف ستعامله؟

١٣ ـ هل تُظهر هذه القصة الفروقات الطبقيّة؟ كيف؟؟

١٤ ـ ما رأيُك في الانتقام؟ هل يجعل المنتقم سعيداً؟ اشرح.

قصص للناشئة

مرتفعات وذرينغ

شارلوت برونتي

دار مكتبة المعارف
بيروت - لبنان